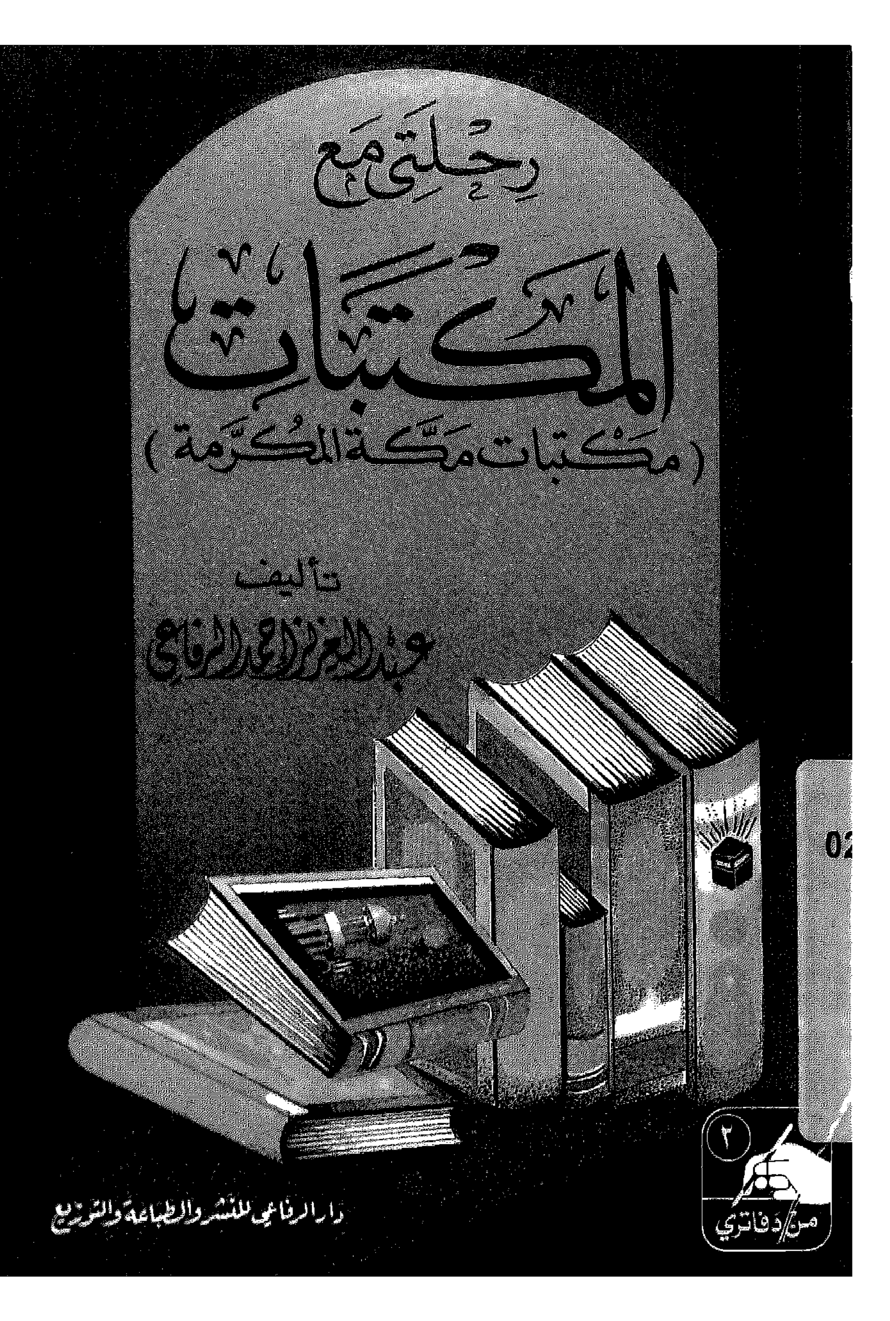

رحلتي مع
المكتبات
(مكتبات مكة المكرمة)
تأليف
عبد العزيز أحمد الرفاعي
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
٢
من دفاتري

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

من دفاتري

(٢)

رحلتي مع المكتبات

مكتبات مكة المكرمة

عبد العزيز الرفاعي



للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض

الطّبعَة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

فسح هذا الكتاب من مديريّة المطبوعات
برقم ٤٦٤٣/م تاريخ ١٤/١٠/١٤١١هـ



دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

ص.ب : ١٥٩٠ ـ الرياض ١١٤٤١ ـ تليفون : ٤٧٨٨٨٣٣
تلكس : ٤٠١٣٦٧ (الفرات) ـ فاكسميلي : ٤٧٩٤٣٢١
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

ماذا يهم القرّاء من ذكريات كاتب ما، عن المكتبات التجارية التي كان يتردد عليها، ويتعامل معها؟ وأية فائدة تعود عليهم من ذلك؟.

لقد طرحت على نفسي هذا السؤال، بعد أن جمعت مادة هذا الكتيب.. حقًا لماذا أفعل ذلك؟.

حاولت أن أسوِّغ الأمر لنفسي.. ثم رأيت أن أضع (المسوغ) أمام قرّائي.. فإن اقتنعوا به.. كانت الفرصة أمامهم لقراءته متاحة.. وإن لم.. فمن الخير أن يتم الانسحاب بانتظام..

الإنسان هو المعرفة.. فإذا افتقدها، افتقد جوهر إنسانيته.. وأضاع (الأمانة) التي عرضها الله عزّ شأنه على الكون فأبى أن يحملها.. وحملها هذا الجاهل الغشوم.. لأنه يريد أن يدفع عن نفسه تهمة الجهل.. فهل دفعها حقًا؟ أم أنه لا يزال

يطلب المعرفة منذ عهده الأول حتى يوم الناس هذا؟ لتظل صفة الجهل ملازمة له.. على الرغم من تلك الرسالات السماوية الكثيرة.. التي جاءت لِعَوْنه وإرشاده..؟ (وما أوتيتم من العِلْم إلا قليلا).

لن أحاول أن أكون فيلسوفًا ، يكفي أن أقول : إن طريق الإنسان إلى المعرفة ، كانت تجاربه وذاكرته.. ولكن ذاكرته وحدها لم تكن كافية.. كان عليه أن يبحث عن وسيلة يخلّد فيها لأجياله المقبلة ، خلاصة تجاربه.. وأثمرت محاولاته المتعددة ، اختراعه الكتابة.. إنها أعظم مخترعاته.. فلولاها لضاعت كل مخترعاته الأخرى..

من أجل ذلك كان (الكتاب).. ومن أجل ذلك كان (الكتاب) هو المعرفة. .إذن.. الإنسان هو المعرفة.. والمعرفة هي الكتاب.. وما دام للكتاب كل هذه الأهمية.. فإن للحديث عنه وحوله فروعًا من الأهمية قد تكبر، وقد تتضاءل.. ولكنها كلها على مختلف درجاتها ترفد تاريخه..

هذا هو المسوغ.. فهل كان كافيًا؟ الكلمة للقارىء..

مدخل

هذه المادة ، من وجهة نظري ، لا تصلح أن تكون كتيبًا قائمًا بذاته.. فهي أقل من أن تكون كذلك.. وقد كان المفروض أن أتريث حتى أستكمل الكلام عن رحلتي مع المكتبات.. في كل بلد تعمّدت أن أبحث فيه عن الكتاب.. وبذلك يصح أن تتجمع مادة كافية..

وكنت حينما شرعت أكتب هذا الموضوع ، وأنشره مقالات بدأتها في جريدة (الجزيرة)، أعتزم حقًا أن أجعل منها كتابًا، بعد أن أستوعب كل ما أستطيع أن أستوعبه في ذاكرتي ، مما يتصل بعلاقتي مع المكتبات.. ولكني بعد أن نشرت الحلقات المتصلة بالمكتبات التجارية في مكة المكرمة.. ورأيت اهتمام بعض القرّاء بها.. وعناية بعضهم بالتعليق على ما جاء فيها، إما تحبيذاً ، أو تصحيحًا ، أو تعقيبًا ، أو نقداً ، وحينما امتد للحوار حبل.. ورأيت أن بعض المعلّقين لم يطلع اطلاعًا كاملا

على حلقات الموضوع ، وقد ظن أنني أهملت منه جوانب لم أهملها في الواقع.. أقول : بعد ذلك كله أدركت أن الأمر على جانب من الأهمية بالنسبة لقطاع معيّن من المجتمع ، كما هو مهم تاريخيًا.. وترجح لديّ عندئذٍ أن أخرج ما كتبته حتى الآن ، كتيبًا صغيرًا أضع فيه الموضوع كاملا أمام نقّاده.. لا مبعثرًا في الصحف هنا وهناك.. فذلك أدعى أن يكون نقده عن بيّنة.

وشيء آخر أود أن يكون واضحًا ، وإن كنت قد أكثرت من توكيده ، في مقالاتي تلك ، هو أن هذا الكلام ، لا يدور إطلاقًا حول تاريخ مكتبات مكة المكرمة، أعني مكتباتها التجارية ، ولا التأريخ لباب السلام ، الذي كان مركزًا رئيسيًا لهذه المكتبات ، ولا هو إحصاء لها.. ولكني حينما كتبت ذكرياتي عن المكتبات، وعلاقتي بها وترددي عليها ، استطردت إلى بعض السرد الذي حاولت من ورائه أن أعطي ـ بقدر المستطاع ـ صورة عن باب السلام ، ومتاجر الكتب فيه، وانساق الكلام إلى غيره.. فعلت كل ذلك من باب اقتناص الفائدة.. فإن أصبت ، فذلك ما أريد وما أحب ، وإن أخطأت.. فإني أرحب بمن يردني إلى

الصواب.. وإن هو إلا هدفي .. وبالله التوفيق أولاً وأخيراً.

ولا أزعم أنني اليوم أنشر مقالاتي تلك على علاتها.. كلا.. فقد حاولت أن أعيد فيها النظر لأكثر من مرة.. واستفدت ممن كتب إليَّ مرشداً أو مذكّراً.. وممن نقد فيما كتب.. ومن لقاءاتي الشخصية.. واحتسبت كل ذلك نوعًا من الاهتمام الذي شجعني على أن أنشر هذا الكلام، على ما فيه من ضآلة ونقص لئلا تذهب به الأيام بدداً بين الصحف.

وخشيت إن أنا تريّثت حتى يتهيّأ لي أن أستكمل رحلتي مع المكتبات جميعًا، أن تتمادى بي الأيام فلا أصنع شيئًا.. إذن فلتكن هذه العجالة، خيراً من أن لا تكون مطلقًا..

وإذا كان لكل كتاب عندي قصة .. فقصة هذا الكتيب، مقال قرأته في العدد الصادر في ٢٨ ذي الحجة ١٤٠٩ هـ من جريدة (الحياة) للأستاذ (محمد أبو سمرة)عن (مكتبة المثنى) في بغداد، أثار بعض ذكرياتي عنها، فعلّقت عليه، ثم استطردت إلى علاقتي بالمكتابت المكيّة .. تلك هي القصة بإيجاز شديد..

ولا أحسبني في حاجة إلى القول ، بأن الذاكرة وحدها كانت مصدري في هذه المعلومات التي حاولت جمعها.. فلا أعرف مرجعًا مكتوبًا أرجع إليه فيها.. لذلك فإني أعدُّ الأصدقاء الذين عُنوا بالتعليق أو التعقيب ، على مقالاتي حين نشرها ، مصادر أعانت على التصحيح والتعديل ، فلهم مني خالص الشكر ، حتى أولئك الذين وجدت في عباراتهم شيئًا من الغضاضة ، فإنما أنا طويلب علم ، أو ناشد حقيقة.. ولا على من التمس الطريق الصحيح ، إن وجد شيئًا من الجفاف عند بعض مرشديه.. فلأ قل للجميع : جزاكم الله خيراً..

ولا أريد أن أحصي أولئك الذين كان لهم الفضل في هذا المقال ، فإن أسماء بعضهم سترد في أثناء الكتيب.. ولكن هناك منهم من أمدني بمعلومات أساسية ، أعدّها إضافات مهمة ، كالأستاذ عبدالرازق بليلة ، أبقاه الله ، والأستاذ صالح جمال ، رحمه الله ، وكلاهما من مؤسسي مكتبة الثقافة ، وكلاهما اشتركا في إدارتها ، وعاشا في أجواء باب السلام، وفي مناخ الكتب والأدب ، وكل منهما أديب كاتب.. والأستاذ عبدالغني

عبدالله فدا ـ حفظه الله ـ أمدني بهذا الملحق الجيد الذي نشر تعليقًا على الموضوع ، فرأيت أن يُضم إلى الكتيب ، كما ضممت أيضًا أساسيات مهمة من مقال الأستاذ (صالح محمد جمال) ، الذي كان شيخ الكتبة ، وكلمة الشيخ ، شيخة الكلام.

إنني أخصّ بالشكر هؤلاء السادة ، وأضيف إليهم شخصين اهتمًا بما كتبت في هذا الموضوع ، أحدهما الصديق العزيز الدكتور (يحيى محمود ساعاتي) ، رئيس تحرير مجلة (عالم الكتب) الذي رأى أن تنشر المقالات ملخصة في مقال واحد ، في مجلته.. ولما كنّا ـ هو وأنا ـ نعلم أنه لو أوكل أمر هذا التلخيص إليّ.. لما حصل مطلوبه . فكان أن تطوع بهذه المهمة الأستاذ (محمد خير يوسف) ، وقد نشر التلخيص في العدد الثاني من المجلد الحادي عشر من مجلة (عالم الكتب) الصادر في شوال سنة ١٤١٠ هـ. وقد شجعني الملخص على أن أنشر هذا الكتيب ، بعد أن تولى التلخيص استبعاد فضول القول ، وتكفّلت أنا بعد ذلك بإضافة ما رأيته مهمًا.. أو مفيداً.. وبحذف ما رأيت إرجاء الحديث عنه.

فلهذين الأستاذين أيضًا أزجي شكري.. فقد أعانا على بلورة الموضوع.. والتمهيد لإخراجه كتيبًا..

ولعلي لا أعدو الحقيقة عندما أقول إن هذه الطبعة ، إنما هي طبعة تجريبية ، أرجو من ورائها الحصول على إضافات جديدةٍ من الإخوة المهتمين بالموضوع.. وبذلك نستطيع أن نخدم زاوية من زوايا التاريخ ، قَلّما نجد من يعنى بها ، على أهميتها للعلم والأدب ، وصلتها الوثيقة بهما ، وإنني لأدرك تمامًا ، أن هناك من الكُتّاب والمؤرخين ، من هو أولى مني بأن يتولى هذه المهمة ، ويضطلع بها ، ولعلي بهذه المحاولة المتواضعة أثير كامنَ نشاطه ، لنحصل على تاريخ مدروس موثّق.. يتخطى حاجز هذه الذكريات المبعثرة ، التي تجرأت على تقديمها للقرّاء..

وإني لأرجو ، متى امتد أجل ، وتهيّأت فرصة ، أن أعود إلى استكمال الحديث عن رحلتي مع مكتبات كثيرة ، في بلادي وخارجها.. لذلك أجّلت حديثي المطوّل عن مكتبة (المثنى) في بغداد إلى أن ترد مناسبتها فيما أعتزم كتابته إن شاء الله ، وكذلك الشأن في مكتبة الأصفهاني بجدة ، فقد أرجأت الحديث

عنها وعنه إلى أن أتحدث عن رحلتي مع المكتبات في جدة ، ودور الصديق محمد حسين أصفهاني في إنشاء مكتبة الثقافة في مكة المكرمة.. وكذلك قد أجّلت الحديث عن مكتبة السيد المؤيد ـ رحمه الله ـ بالطائف ، إلى حين مناسبته كذلك ، مع أن بداية معرفتي به كانت في مكة المكرمة ، حينما كان يعمل مساعداً للأستاذ عمر عبدالجبار ـ يرحمه الله ـ في مكتبة هذا الأخير الذي سمّاها (مكتبة المعارف) وكانت في أول أمرها في باب السلام ، ثم انتقلت إلى باب الزيادة..

وكلمةٌ أخيرةٌ لا بد منها ، هي أن المعلومات الواردة في هذا الكتيب لا يمكن أن تشكّل إعلانًا تجاريًا عن أية واحدةٍ من المكتبات التي ورد ذكرها ، لسبب يسير ، هو أن أكثرها قد أصبح تاريخًا.. أما ما بقي فليس في كلامي ما ينم عن أي توجيه إعلاني ، وكيف يكون ذلك وقد أضعت العناوين ـ وبالله التوفيـــق،،،

عبدالعزيز الرّفاعي

الأندلس ـ سهيل (فونخيرولا) ـ مالقا ١٤١١/١/١٢ هـ

- ١ -

من الطبيعي أن تكون بداياتي مع الكتاب في مكة المكرمة حيث نشأت ، ويعرف رصفائي ، والذين سبقوني ، أو الذين اقتربوا من جيلي ، أن المكتبات في مكة المكرمة كانت أغلبيتها مجتمعة في صعيد واحد ، هو (باب السلام) بفرعيه ، أعني باب السلام الكبير ، وباب السلام الصغير ، أما الصغير فكان زقاقًا يمتد من المسعى ويفضي إلى الحرم ، مروراً برحبة باب السلام.. أما باب السلام الكبير فطريق على جانب من السعة يفضي من الحرم إلى المسعى.. أي أن كليهما كانا طريقين يؤديان من المسعى إلى الحرم وبالعكس ، حيث تقوم عقود الأبواب الثلاثة التي يجمعها اسم (باب السلام) .

كان مشاهير الكتبية في باب السلام الكبير ، أو في الرحبة المواجهة للعقود.

إن الخارج من تلك العقود تقابله دكاكين تحتل الصدارة ، من بينها مكتبة الشيخ (عبدالفتاح فدا) شيخ الكتبية بعد وفاة الباز الكبير (أحمد المنصوري الباز) الذي كان شيخهم . وكان العم عبدالفتاح فدا ـ يرحمه الله ـ رجلا دمث الأخلاق ، لطيفًا مع زبائنه.. ولا يزال بعض أبنائه يتعلّق بالمهنة.

وفي صفه دكان (عبدالصمد فدا) – يرحمه الله – ، وهو من أسرة الشيخ.. وكنت أُفضّل أن أتعامل معه ، فقد كان يحتفي بي ، وإذا لم يكن الكتاب الذي أطلبه موجوداً لديه ، وعرف مكان وجوده ، رمى إليّ بمقعدة صغيرة من القطن ، لأجلس عليها فوق بلاط رحبة باب السلام ـ فقد كانت الرحبة الأمامية مرمرية البلاط ـ منتظراً جولته الصغيرة على جيرانه ريثما يحضر إليّ الكتاب الذي أطلبه ، وكانت طريقته في التعامل تعجبني.. فهو لا يميل إلى المماكسة ، وسعره محدد ومعقول.. وله مبدأ يردده دائمًا هو : (كلامٌ واحدٌ لا ينقص أبداً) ، ويلاحظ أنه ينطق العبارة بأداء نحوي سليم ، ومع هذه الصرامة كان مبدأه يريحني.. وكان الشيخ (عبدالصمد فدا) ـ يرحمه الله ـ طالب علمٍ

وكتبيًا محترفًا ، يعرف تمامًا مكان أي كتاب من كتبه ، بل يعرف مظانّ وجود الكتاب عند جيرانه ، وهو إلى ذلك مقرىء جيد ، يحفظ القرآن الكريم ويُلِمّ بقراءاته ، وكثيراً ما ترددت تلاوته من الإذاعة السعودية.. وربما ظلّت تحتفظ ببعض تسجيلاته.. ولعل لدى أسرته شيئًا منها. والشيخ عبدالصمد فدا هو والد الُمربّي المعروف الأستاذ (محمد فدا) - يرحمه الله - ، الذي كان مديراً لمدرسة الثغر النموذجية ، وقد اشتهر ببراعته التربوية.

ومن آل (فدا) الذين عملوا في حقل بيع الكتب ، الأستاذ عبدالله فدا ، وكان صديقًا للأدباء الرواد ، ولعلّه أول من فتح باب استيراد الكتب الحديثة.. وكان يُعَدُّ من الأدباء والكُتّاب.. وقَلّما ترددت على مكتبته.. وهو والد الصديق الأستاذ (عبدالغني فدا) [1]، وكان دكانه بجانب دكان عبدالصمد فدا.

---

(١) له تعليق سيأتي في ملاحق هذا الكتيب.

ومنهم الشيخ (حسن فدا) ـ يرحمه الله ـ ، وقد كان له دكان صغير لبيع الكتب في باب السلام على الرحبة المرمرية ، وعلى يمين الخارج من الحرم.

وكان يلي دكانه ـ أو بعده بدكان ـ دكان آخر صغير أيضًا ، هو دكان الصديق (عبدالحليم الصّحّاف) ، الذي أصبح فيما بعد (مكتبة الثقافة) ، وكان هذا الدكان في عهديه ، الأول والثاني ، مركزاً مفضلا عندي للاجتماع وقت العصاري مع لفيف الأصدقاء مؤسسي مكتبة الثقافة التي كان لها دور فعّال في تنشيط الحركة الثقافية ، فقد فتحت باب الاستيراد واسعًا للكتب الحديثة ، والمجلات العربية بأنواعها ، وخاصة من مصر ، وصادف زمن تأسيسها أن الحركة الأدبية والفكرية في مصر كانت في أوج اندفاعها[1].. أما قبل ذلك فقد كانت السيادة للكتاب التراثي ، وخاصة في طبعاته القديمة ذات الورق الأصفر ، وكثيراً ما كان

---

(١) يجد القرّاء ملحقًا يتضمن تاريخ هذه المكتبة بقلم أحد مؤسسيها ، وهو الأستاذ صالح محمد جمال ـ رحمه الله ـ.

المجلد الواحد يحتوي على أكثر من كتاب ، ففي المتن كتاب ، وفي الهامش كتاب أو أكثر ، وربما انقسم المتن إلى قسمين أيضًا ، قسم علوي وآخر سفلي ، فضم المتن كتابين.

ومن العجيب أننا في صبانا كنّا نصغي لدعاية مركّزة ضد هذه الكتب المباركة ، التي نعتوها بالكتب الصفراء.. ثم أدركت فيما بعد أن بها لُباب العلم.. إلا ما شذّ ، وما شذّ لايهدم القاعدة.

أما باعة الكتب الحديثة ، قبل مكتبة الثقافة ، فقد كانوا يستوردونها على حذر.. كان يفعل ذلك الأستاذ عبدالله فدا ، والأستاذ أحمد الحلواني ـ يرحمهما الله ـ ، وربما أحد آل الباز.. وقد تابع هؤلاء فيما بعد قِلّة آخرون ، كان منهم الشيخ عمر عبدالجبار ـ يرحمه الله ـ ، وعبدالرحمن العفاني.

وكان إلى جوار (مكتبة الثقافة) ، وقبل الزقاق ، دكان صغير هو دكان الشيخ (أحمد الباز) ـ يرحمه الله ـ ، وهو ينتمي إلى إسرة كبيرة ، اشتغلت بتجارة الكتب ، وكان هذا كتبيًا ماهراً

نشطًا ، تزدحم مكتبته على صغرها بكثير من الكتب التراثية الجيدة ، وخصوصًا التي يطلبها طلاب العِلْم في المسجد الحرام ، وكانت علاقتي به جيدة جداً ، كنت أتردد عليه كثيراً ، وأشتري بعض نفائس كتب التراث ، بالقدر الذي كانت تتسع له ميزانيتي المكدودة المحدودة.. وكان بارعًا في استدراجي إلى الشراء.. وكان من دأبه أن يشتري بعض الكتب من (الحراج) ، أعني من المزاد ، أو من الباعة المتجولين الذين يشترون كتبهم من أسواق المزاد أيضًا. أو قد يحصلون على صفقات من الكتب في التركات ، مثل (البارودي) أو (العم بعرورة).. وقد أغراني ذات مرة أن أشتري منه نسخة من الأغاني ـ طبعة بولاق ـ وهي نسخةٌ نفيسةٌ حقًا ، ولكنها كانت ناقصة ، وبعض أوراقها كانت دشًا يتطلب ترتيبًا وتنسيقًا ، وأغلفة مجلداتها منزوعةٌ.. وحالها لا يسر الناظرين ولا القارئين.. ولكن من أين لي أن أحصل على نسخة بولاق؟.. وأشتريها.. بثمنٍ غير قليل (بحوالي ثلاثين ريالا).. لم أستطع أن أدفع المبلغ كله ، لأنه كبير على مرتبي ، فلم يمانع الشيخ أحمد ـ يرحمه الله ـ في أن يأخذ بعضه ، ويصبر على

البعض ، حتى أوفيته.. وأجهدت نفسي في ترتيب هذه النسخة، واستدراك ما نقص من صفحاتها عن طريق الاستنساخ من نسخةٍ مثيلةٍ في مكتبة الحرم المكي الشريف ، أيام أن كان مدير هذه المكتبة الشيخ الفرائضي ، وكان مقرها في باب الدريبة.. فكنت أستنسخ من النسخة البولاقية فيها ، المماثلة لها تمامًا ، ما ينقصني من الصفحات ، ولكثرة ترددي على مكتبة الحرم كنت أتوق أحيانًا إلى مطالعة كتبٍ أخرى غير الأغاني. وأتاح لي ذلك التردد أن ألتقي بأستاذنا العلامة الجليل الشيخ حمد الجاسر ، الذي كان في الفترة ذاتها مدرسًا في المعهد العلمي السعودي ، الذي كنت طالبًا به ، وكان شيخنا أحد أساتذتي فيه ، وهو أستاذ الدروس الدينية ، وكان اجتماعي به في مكتبة الحرم يجدد عهدي به ، كما يتيح لي أن أستفيد من توجيهاته وسعة معرفته بالكتب والمخطوطات.. وما قد يكون له على بعضها من تصويبات أو آراءٍ قيّمةٍ.

وكنتُ أحمَدُ للشيخ الباز بشاشته ودعاباته وروحه المرحة..

وقد ترك بعده ـ يرحمه الله ـ أبناءً عملوا في الميدان نفسه ، ولا يزالون.

وجدير بالذكر أنه غير (أحمد المنصوري الباز) الذي كان شيخًا للكتبية ، ودكانه في باب السلام الكبير.

في باب السلام الصغير أيضًا.. كانت تأتي بعد مكتبة الشيخ أحمد الباز للخارج من الحرم متجهًا في ذلك الزقاق الضيّق المستطيل ، النافذ أيضًا إلى المسعى ـ كانت تأتي (مكتبة الجيل) وهي على ما أذكر مكتبة للكتب الحديثة ، قام بتأسيسها ثلاثة من الشباب أحبوا الأدب والكتب ، وهم : يحيى المعلمي ، وحسن جوهرجي ، وعبدالقادر الفاسي.. وقد استطاعوا أن يصابروا بعض الوقت على تجارة الكتب.. وهي تجارة لا يصبر عليها إلا أولو العزم.

ويحيى المعلمي.. هو الآن الفريق يحيى المعلمي ، الأديب المعروف ، ناقداً ، وكاتبًا ، وشاعراً ، ومؤلفًا ، وباحثًا مدققًا.

وحسن جوهرجي.. هو الآن الأستاذ حسن جوهرجي.. الذي لا تنقطع صلته بالأدب والكتب.. فتطل كتاباته الاجتماعية بين الحين والحين على القـّراء.. وقد كان من كبار الموظفين قبل أن يتقاعد ، وكذلك كان الفريق المعلمي من كبار رجال الأمن.

أما الأستاذ عبدالقادر الفاسي.. فقد آثر البقاء بمكة المكرمة.. ولعلّه لم يبرحها ، وهو من أسرةٍ مكّيةٍ عريقةٍ.. وجدّه مؤرخ مكة المكرمة العظيم تقي الدين الفاسي.

كانت (مكتبة الجيل) على يمين الصاعد من الحرم إلى المسعى.. أما على يسار الصاعد ، فكانت تأتي مكتبة أخرى لآل الباز هي مكتبة (عبدالكريم الباز) ، ابن شيخ الكتبية الأسبق.. وكان يدير المكتبة الأخ الصديق (عبدالله العرابي) الذي لا يزال وثيق الصلة بالكتب ، صديقًا للأدباء.. وفيًا لمهنته ، حفيًا بها.. وطالما اتخذنا مكتبته في باب السلام الصغير مركزاً أو (مركازاً) لاجتماعاتنا.. وخاصة مع الصديق الوفي الأستاذ (عبدالله الغاطي) أحد الأدباء من جيلنا.. وكان العرابي لا يضن علينا أحيانًا بإعارة بعض الكتب.. خصوصًا تلك التي تندر نسخها.. وعندما يؤرخ للأدب ، يجب أن يؤرخ لمكتبته على أنها ملتقى للأدباء من جيلنا.. كما كانت مكتبة الثقافة.. وإن كانت علاقتنا بهذه الأخيرة أكثر لصوقًا..

وليس بي حاجة إلى تعداد من كان يغشى مكتبة الأخ

العزيز عبدالله العرابي وما ضمّت من أصدقائه ولداته (الشباب).. وإلا فلا يصح لي أن أغفل ذكر الصديق الحميم الشاعر الكبير ، الأستاذ (حسن عبدالله القرشي) ، فقد كانت له في هذه الجلسة صدارة ، وكان له مكان مرموق ، وهو عند صديقنا العرابي جلدة ما بين الأنف والعين.. كما قال الشاعر القديم٠٠

وليس عندي شك أن المكتبات كانت ـ أو بعضها على الأدق ـ مراكز تجمّع للمثقفين والأدباء والعلماء ، وربما تحوّلت إلى أندية تطرح فيها قضايا الفكر والأدب ، ومسائل العلم.. ولو رزق هذا الموضوع من يتتبعه ، ويكتب فيه ، لوجد من القول متسعًا.. ولوجدنا في المادة طرافةً وفائدةً وتاريخًا.. ومثل هذا البحث لا يستطيع أن يخوض بحره إلا الذين عاصروا الحقبة التي أتحدث عنها.. والتصقوا بأصحاب المكتبات٠

ويكاد يقفر باب السلام الصغير من المكتبات ، غير ما ذكرت.. وإن كان يتحول في الليل إلى بعض " بسطات " أصحاب الحلويات الهندية.. من " اللدو " ، و " اللبنية " ، و"القل " ، و " اللوز المقلي "..... الخ.. أي أنك في باب السلام

الصغير كنت تستطيع أن تجد بالنهار كتبًا وأدبًا ، وبالليل لوزاً وحلوى.. وكلها أطايب.

وفي الساحة المرمرية ، إلى يسار الخارج من الحرم ، توجد بعض الدكاكين جاء في أحدها من بعد ، الشيخ (عمر عبدالجبار) ففتح مكتبة أسماها (مكتبة المعارف).. وكان أستاذنا الشيخ (عمر عبدالجبار) ـ يرحمه الله ـ ، معنيًا بالكتب المدرسية ، يستوردها ويؤلفها ، ويستورد أيضًا جانبًا من الكتب الحديثة.. وعن طريقه عرفت كتابًا عن الأدب العراقي الحديث ، فيه مشاهير من شعرائه ، منهم : البصير ، والجواهري ، والرصافي ، والزهاوي، وغيرهم.. على أن أستاذنا ما لبث أن نقل مكتبته إلى (باب الزيادة) ، ثم أغلقها حين انتقل للعمل في الدوائر الحكومية.

وكذلك (عبدالرحمن العفاني) فقد كان أول أمره في باب السلام ، ولعلّه كان بجوار دكان أستاذنا الشيخ (عمر عبدالجبار).. ثم انتقل بمكتبته إلى باب الزيادة ، وقد كنت

أشتري منه بعض الإصدارات الجديدة ، سواء من كتب التراث أو من غيرها.

وبعد أن نتجاوز الرحبة المرمرية البيضاء ، ونتخطى الحجر المستطيل الذي يعترض الطريق ، مرتفعًا بحوالي أربعين سنتيمتراً ، (والمكّيون يظنونه بقايا " هبل " كبير أصنام قريش ، وأنه وضع حيث هو ليداس بالنعال امتهانًا له ، ولكني لم أقف في التاريخ على ما يؤيد هذه الشائعة) [(١)].

أقول : بعد أن نتخطى هذا الحاجز خارجين من الحرم ، نجد رحبة أخرى ، أرضها مرصوفة بالحجارة السوداء أو الرمادية ، رصفًا عفويًا ، فتكون في الصف على يمين الخارج مكتبة (أحمد السناري).. وكان صديقًا حميمًا لوالدي ـ رحمهما الله .. وقلّما يجد الباحث في هذه المكتبة شيئًا من كتب العِلْم المعتمدة، ولكنه يجد كتب الملاحم الشعبية ، (الأميرة ذات الهمّة) ،

---

(١) ينظر الملحق الثاني ص ٧٤ - ٧٦ عمّا قاله الأستاذ عبدالغني فدا عنه.

و (حمزة البهلوان) ، و (الزير سالم)، و (ألف ليلة وليلة) ، و (عنترة).... الخ ، كما يجد الروايات الكبيرة المسلسلة من أمثال (روكامبول) ، و (جونسون).. ولدى الشيخ السناري تسهيلات لا نظير لها ، فهو يؤجر هذه الكتب لمن لا يستطيع شراءها أو لا يريد.. وقد نجد بعضها لديه أجزاء صغيرة مجلّدة تجليداً شعبيًا بالكرتون الأحمر ، يكتب على أغلفتها بخطه.. وقد قرأت شيئًا من هذه الكتب وأنا بعد صبي ، فقد كنت أجدها لدى والدي - يرحمه الله - فأقرأ منها ما يقع تحت يدي.. وبالقدر الذي أجده فائضًا من وقتي.

وقد كانت روايات الجيب بالذات تستهويني.. فأنا إذن مدين للشيخ السناري - من حيث يدري أو لا يدري - بالكثير مما قرأت من هذه القصص.. ولكنه دين غير مباشر ، وإن كان قد دلّني على التراث الشعبي في ميدان القصة.. كما عرّفني بروائع القصص الغربي ، عن طريق مترجمات (طانيوس عبده) الذي ترجم (روكامبول) و (جونسون)، أو مترجمات غيره ممن ترجم (روايات الجيب).

***

وفي صف مكتبة الشيخ السناري مجموعة من المكتبات ، منها مكتبة (علي النهاري).. وأحسب أن هذا كان مختصًا ببيع المصاحف ومصورات الكعبة والمدينة.. التي يسع الحاج أن يكتب عليها ، أو يستكتب تاريخ حجه وزيارته.. ليحتفظ بها في منزله إذا عاد ، شهادة تدل على أنه صار " حاجًا ".. وهو لقب تشريف جدير بالذكر والتسجيل.. وفي هذا الصف أيضًا تقع مكتبة الشيخ (عبدالكريم فدا) ـ يرحمه الله ـ .. وقد كان الشيخ عبدالكريم واسع العلاقات (اجتماعيًا) ، يحب القيلات والخرجات والسمرات مع أصدقائه وثُلّته.. أما بقية الدكاكين التي كانت في الصف نفسه ، فلم أكن على معرفة به [١].

أما عن يسار الخارج من باب السلام ، بعد اجتياز الحاجز الحجري المستطيل ، فكانت تقع مكتبة الشيخ الباز (أحمد المنصوري الباز).. وقد أدركت الشيخ الكبير متقدمًا في السن ، أنهكته الشيخوخة.. وكان شيخًا للكتبية.. وكانت مكتبته زاخرة

---

(١) ينظر الكروكي الذي وضعه الأستاذ عبدالغني فدا .

بكتب مهمة من كتب التراث. وإن كان ابنه قد اتجه إلى استيراد شيء من إصدارات مصر الحديثة ، حينما كانت مصر في مركز القيادة للكتاب العربي ، تأليفًا وطباعةً وإخراجًا وتحقيقًا.

وحينما توفي الشيخ الباز الكبير انتقلت مشيخة الكتبية إلى الشيخ (عبدالفتاح فدا) ـ رحم الله الشيخين ـ كما انتقلت المكتبة إلى ابنه الكبير عبدالكريم الباز.. ومنه اشتريت نسخة من كتاب (معجم الأدباء) من مراجعة (فريد رفاعي).. وكان الباز الابن قد اشترى منه صفقة كبيرة.. فباعه بسعر رخيص.. وما زلت أحتفظ بتلك النسخة ، وأعدّ من نِعَم الله عليّ التي لا يحصرها عدّ ، اقتنائي لتلك النسخة.. وأعتقد أن هذه المكتبة هي التي اشترت مؤلفات الشيخ (حسين عبدالله باسلامة) بعد وفاته، صفقة واحدة بالميزان.. وقد رأيت بأُم عيني (نعم بأم عيني) هذه الكتب تُرَصّ في كفة الميزان ، فترتفع رأسيًا في مقابل ما يوضع في الكفة الأخرى من (الصنج) ، بالأقة وبحساب القنطار.. والقنطار أربعون أقة.. ومن الباز الابن اشتريت نسخة من كل كتاب من كتب الشيخ باسلامة ، الذي بذل فيها جهداً وعرقًا

وسهراً.. ومن الباز الابن استعرت نسخة من كتاب (ليلى المريضة في العراق)، وكنت قرأته من قبل مقالات منجمة في مجلة (الرسالة)، وكان لمؤلفه زكي مبارك أثر مذكور في تحبيب الأدب إليّ.

وما دام الحديث لا يزال متصلا عن مشيخة المكتبات أو الكتبية، وهي مشيخة من حق صاحبها أن يعتز بها لصلتها بالحرف وشرفه ومكانته في الحضارات.. فقد أعلمني الأستاذ (عبدالرزاق بليلة) ـ ولم أكن أعلم ـ أن شيخها حين إعداد هذا الكتاب هو الأستاذ (صالح محمد جمال) ـ رحمه الله ـ أحد كبار مؤسسي مكتبة الثقافة التي لا تزال قائمة، وكان راعيها ومحركها، وصلته بالثقافة وثيقة، ولم يكن قلمه يغيب عن الصحف، فقد خاض غمار الصحافة فترات من الزمن كما أسس مطبعة الثقافة التي لا تزال تؤدي مهمتها في دنيا الكلمة.

* * *

وقد بلغني أن الشيخ (ماجد كردي) ـ وهو أحد أعيان مكة

المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري ـ كان شيخًا للكتبية قبل الشيخ أحمد منصوري الباز.

وعلى ذكر الشيخ (ماجد كردي) يرحمه الله.. فإن للشيخ عباس قطان ـ يرحمه الله ـ مأثرة يجب أن تظل ماثلة في ذاكرة التاريخ ، فقد اشترى مكتبة صديقه الشيخ (ماجد كردي) ، وهي مكتبة عرفت بثرائها وما تحتويه من مخطوطات ، ومن مطبوعات نادرة الوجود ، وخاصة مطبوعات المطبعة الماجدية التي كان يملكها الشيخ ماجد نفسه ، اشترى الشيخ عباس هذه المكتبة من ورثة الشيخ ماجد ، واستوهب من الملك المؤسس عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ الأرض التي استفاضت شهرتها عند أهل مكة المكرمة على أنها مكان مولد الرسول (ﷺ) .. ليبني عليها داراً للكتب، يودع فيها المكتبة الماجدية. وقد وافق الملك عبدالعزيز على ذلك ، ولكن الشيخ عباس قطان توفي قبل أن يتمكن من إتمام بناء المكتبة ، أو قبل أن ينقل الكتب إليها ، فتولى ذلك أبناؤه من بعده.

* * *

وتأتي بعد مكتبة الشيخ الباز (بدكان أو دكانين) بالنسبة للخارج من الحرم من باب السلام الكبير مكتبة الشيخ (الميرة) ، وهي في دكان واسع ، منسّقة تنسيقًا جيداً ، وتحتوي نفائس كتب التراث ، وقَلّما تسأل عن كتاب مهم من كتب التراث إلا وتجده بها.. وصاحبها رجل مهيب جاد.. يدعوك منظره لاحترامه.. فإن لم تجد عنده البشاشة ، فلن تعدم لطف المعاملة.. والكلمة المهذبة.. وكنت إذا أعياني البحث عن كتاب قديم قصدت مكتبة (الميرة) ، وكثيراً ما أجده لديه.. فإن لم أجده تضاءل الأمل في أن أجده عند غيره.

وفي هذا الجانب يأتي مدخل حنفية باب السلام أو الميضأة الكبيرة.. التي تشتمل على دورات مياه كثيرة ، وقبة كبيرة تحيط بها صنابير الماء للمتوضئين.. وهي تقع بعد دكان(الميرة) ، ربما بدكان أو أكثر.. لم أعد أذكر.. وعندما ترتفع الرحبة إلى درجات تصعد إلى رحبة أخرى صغيرة تفضي إلى درجات قليلة أيضًا ، وهذه تفضي إلى المسعى.. الذي كان سوقًا عجيبًا ، يختلط فيه السعاة الذين يؤدون الشعيرة ، مع المتسوقين

العابرين.. عرضًا أو طولاً.. وكانت الدكاكين على جوانبه فيها كل شيء تقريبًا إلا الخضروات واللحوم.

بعد بوابة الحنفية - وعلى يسار الخارج من الحرم أيضًا - تأتي مكتبة (عبدالعزيز مرزا) ، وربما جاء بعدها أو قبلها دكان صغير هو دكان (علي البوصي) ، وهذا كنت أشتري منه كتيبات صغيرة في ورقات تحتوي على قصص مجتزأة من " ألف ليلة وليلة ".. في الواقع أنني مدين لهذا الرجل.. فقد كنت ، وأنا بعد صبي ، لم أتقن فك الحرف تمامًا ، أشتري منه هذه الكتيبات " اللذيذة " بهللة أو هللتين ، وأستمتع بقراءتها ، وأقرأها على بعض أهلي.. وإن كانت قراءتي لا تستلزم بطبيعة الحال قدرتي على استيعاب المعاني . أوقراءة الكلمات قراءةً سليمةً.. ولكن هذه الكتيبات كانت الخطوة الأولى التي قادتني إلى هواية المطالعة.. إنها الدرجة الثانية من السلّم الطويل.. أما الدرجة الأولى فقد كانت كتاب " القراءة الرشيدة " ، أي الكتاب المدرسي للقراءة.

كان العم " البوصي " رجلا طيبًا متهاوداً.. وربما كان يدرك أنني إنما أوفر تلك الهللة أو الهللتين من مصروفي الجيبي.. الذي كنت لا أكاد أجده.. فكان أحيانًا يكتفي بهللة واحدة للكتاب.. إن صلتي بالكتاب ، في قراءاتي الحرة تبدأ بمكتبة البوصي " فمنه كانت بداية تعاملي مع المكتبات.

دكان " المرزا " أو مكتبته ، كان واسعًا بعض الشيء.. ولكنه لم يكن يحتوي كتبًا ، بل " قرطاسيةً " ، كان متخصصًا ببيع ورق الكتابة والدفاتر والأقلام والمراسم.... الخ. وكان مؤسسه الشيخ (عبدالعزيز مرزا) ـ يرحمه الله ـ رجلا ذكيًا. وسّع من تجاربه ، واستطاع أبناؤه من بعده أن يسيروا على خطواته.. وأن يطوّروا تجارته.

من الشيخ المرزا كنت أشتري ، وأنا تلميذ ، أوراق الكتابة " الفروخ " والأقلام البوص ، قبل أن تنتشر " الريش الملا" نمرة واحد واثنين وثلاثة.. وكذلك المحبرة الحبر ، و "الزية" بعد أن بطل استعمال الأقلام البوص.. ثم بطل أيضًا استعمال " الريش "

بعد أن وفد قلم الحبر.. ثم الأقلام الجافة... الخ.. ويجدر بي أن أذكر أنني عن طريق " مكتبة المرزا " عرفت الطريق إلى باب السلام.. وإلى الكتب..

هذا ما أذكره من حوانيت الكتبية التي كانت إلى يسار الخارج من المسجد الحرام متجهًا إلى المسعى [1].

---

(١) وقد استفدت من مقالة للأستاذ زهير كتبي (في العدد ٩٣٥١ من جريدة البلاد) ، حفيد الشيخ " إبراهيم كتبي " فائدة يجب أن أذكرها له بالشكر ، وهي أنه كانت للشيخ (سليمان الصنيع) مكتبة في باب السلام تقع أمام مكتبة جده ، فهذه معلومة جديدة بالنسبة لي حقًا ، لقد عرفت الشيخ الصنيع مولعًا بجمع الكتب ، كنت أراه في مجلس الأفندي نصيف - يرحمهما الله - .. فهو له صديق حميم ، تجمعهما هواية جمع الكتب. وكان الشيخ الصنيع يملك مكتبة كبيرة ، اشترتها فيما بعد من ورثته جامعة الملك سعود.

- ٢ -

وإذا كانت المكتبات التجارية قد تركّزت في باب السلام بفرعيه : الكبير والصغير.. فلم تخلُ من المكتبات جهاتٌ أخرى في البلد الحرام.

فقد أشرت من قبل أن الكتبي العفاني (عبدالرحمن) فتح مكتبة في (باب الزيادة) ، وقبله الشيخ (عمر عبدالجبار) ـ يرحمه الله ـ ، إذ نقل مكتبته (مكتبة المعارف) إلى باب الزيادة.. ولا أحسب أن هناك غيرهما .

إلا أنه مما يجدر ذكره أن الشيخ[1] (عبدالله محمد غازي ت ١٣٦٥ هـ) مؤرخ مكة في القرن الماضي (الرابع عشر) كانت له (بسطة كحل) في باب الزيادة ، وكان أثناء جلوسه عند بسطته هذه يشتغل بتدوين تاريخه لمكة ورجالاتها وأحداثها :

---

(١) لمعرفة المزيد عن الشيخ عبدالله غازي انظر : مجلة المنهل ، المجلد السادس ص ٤٥٩ - ٤٦٠ ، والأعلام للزركلي .

(إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) . وتاريخه هذا مودع الآن على ما أعلم بمكتبة الحرم المكي.

وأعرف في (باب العمرة) صاحب مكتبة وحيدة هناك ، هي مكتبة الشيخ (إبراهيم الكتبي) والد زميلي في الدراسة (أمين كتبي) وشقيقه جميل ، وهي مكتبة صغيرة ، قليلة الكتب. وأظنها كانت لا تحتوي إلا كتبًا فقهيةً ، كنت أرى صاحبها مكبًا على المطالعة لا يملها ،ثم أخذ مكانه في دكانه الشيخ (مصطفى يغمور) بعد أن تقاعد،وأخذ بدوره يكب على المطالعة.

والشيخ اليغمور كان مديراً لمدرسة (الصفا) التحضيرية التي دَرَستُ بها ، وكان رجلا عطوفًا حليمًا - رحمه الله - وكنا نهرب من شدة الشيخ (عبدالله خوجة) إلى حلمه ورحمته.

وقد ذكر الأستاذ (زهير جميل كتبي) في مقاله الآنف الذكر أنه كانت لجده الشيخ (إبراهيم كتبي) - يرحمه الله - مكتبة بباب السلام على يمين الخارج من المسجد الحرام ، بين مكتبة

الشيخ (أحمد السناري) ومكتبة الشيخ (عبدالكريم فدا) - يرحمهما الله - ، وأنها نقلت إلى القشاشية عند توسعة الحرم وإزالة باب السلام.

لقد ذكرت ما أعرفه عن مكتبة الشيخ الكتبي في (باب العمرة) أما عن عهدها في باب السلام فلا (تسعفني) به الذاكرة.. أما عن عهدها في (القشاشية) فأمرها في ذاكرتي كالضباب ، أي بين بين.

وما دمنا في حديث (الكتبية) ، والذين يحملون في مكة المكرمة هذه النسبة إلى (الكتب) ، وقد أصبحت ألقاباً لهم ، أعني هذه الأسرة في مكة المكرمة ، التي تحمل هذا اللقب فلا ضير في ذكر من أعرف من هذه العائلات.. ويأتي في مقدمتها أسرة السادة آل الكتبي ، وهي أسرةٌ هاشميةٌ معروفةٌ ، منهم العلامة السيد (أمين كتبي) - يرحمه الله - الذي كان مدرساً بالمسجد الحرام ، وقد حضرت جانباً من دروسه في " مغني اللبيب" في النحو ، وأعدّه من كرام أساتذتي ، وهو إلى علمه

بالعربية ، عالم في القراء ات ، وله شعر رقيق ، وعني بالمدائح النبوية بصفة خاصة. ومن هذه الأسرة الكاتب الإسلامي الكبير السيد (حسن كتبي) الذي كان وزيراً للأوقاف.

وكانت في باب السلام الكبير مكتبة ، ربما تقع على يسار الخارج من المسجد الحرام للشيخ (عبدالحفيظ الكتبي) الذي ترك الكتب وعمل في السيارات ، فأسس لها شركة ، في فورة إقبال الناس على تأسيس شركات أهلية للسيارات ، أول نشاط حركة استيراد السيارات ، فكانت هناك (شركة التيسير) و(قاصد كريم)و(السهالة)... الخ. ولكن أسرة الشيخ عبدالحفيظ ـ يرحمه الله ـ ظلّت تحمل لقب الكتبي.

وهناك أيضًا أسرة (كتب خانة).. فقد كان جدها على ما بلغني أمينًا لمكتبة الحرم المكي.

هذا ما أعرفه عن الأُسَر التي تحمل هذا اللقب ، وهي كما ذكرت أربع عائلات.. وقد تكون هناك أُسَر أخرى لا أعرفها ، أو لم أعد أتذكرها.

ولا أحسب أن هناك في أبواب الحرم الأخرى ، غير ما ذكرت ، من عني ببيع المصاحف والكتب.. إلا أنه كان في مواجهة باب الصفا في الطريق الرئيسي الموصل من (القشاشية) إلى سوق الصغير وأجياد - أي طريق وادي إبراهيم - يقع دكان (الفخراني) وكان يبيع المجلات ، وربما باع بعض الكتب.

كما كان يوجد في أول القشاشية في منطقة (الخاسكية) إلى جوار بيت (باناجة) أو مواجهته دكان (قاسم ميمني) وكان يبيع الصحف والمجلات وبعض الكتب ، ولكنه كان يغلو في أسعاره.. صارمًا.

وفي القشاشية كان دكان أو مكتبة (أحمد حلواني) صديق الأدباء من الأجيال التي سبقتنا.. وكان يحضر بعض الكتب الحديثة من مصر ، ومنه اشتريت نسخة من (كشف الظنون) بستين ريالا ، وهو ثمن مرتفع جداً آنذاك ، إن لم يكن راتب شهر فهو نصفه.. وهو الآخر كان صارم الأسعار.. متغاليًا فيها.

- ٣ -

ولم تخلُ مكة المكرمة من باعة الكتب القديمة ، الذين يلتقطونها من سوق الحراج ، أو من حراج العصر.. وعرفت من هؤلاء (أحمد سيام).. كانت له بسطة في (سوق الليل) أو (شعب علي) ، يعرض فيها بضاعته من المجلات القديمة والكتب المستعملة.. وكان لمثل هذه الأشياء هواتها.. وقد نجد فيها أحيانًا كتبًا نادرةً.. كما أن مجالس (السيام) كانت أنيسةً.. لكثرة ما يحفظ من القصص والحكايات والنوادر.. التي كان يجسِّدها بإلقائه المُعَبِّر.. مستعينًا بحركات وأصوات تمثيلية.. رحمه الله

وأسواق الحراج لا تخلو عادة من بسطات لباعة الكتب المستعملة.. كما أن هناك باعة شبه متجولين ، يبيعون كتب الطواف والأدعية ، وربما المصاحف ، وكتب قصص الأنبياء ، وما إليها.. وهؤلاء يتابعون مواطن ازدحام الأقدام ، ويصعدون ببضاعتهم إلى (عرفات) ويفيضون مع الناس إلى (مِنَى) .

- ٤ -

وقلّما تبتعد المكتبات التجارية عن المسجد الحرام ، إما في الطُرقات المفضية إلى أبوابه ، أو أمام الأبواب.. ولقد ذهب بعض أصحاب المكتبات ، وخاصة بعد توسعة الحرم المكّي ، إلى أماكن أخرى ، ولكنهم حرصوا على ألا يبتعدوا عن الحرم ، الذي هو المركز الأول بالنسبة إليهم.

لقد ذهب (أحمد حلواني) إلى (القشاشية).. وكذلك فعل (الباز).. وذهبت (مكتبة الثقافة) إلى (سوق الليل).. ثم أخذت المكتبات بعد ذلك تنتشر في كل مكان ، وذهبت إلى الحواري البعيدة ، واقترب بعضها من المدارس والكليات ومقر الجامعة ، وإن ظل بعض مشاهير الكتبية إلى جوار الحرم على مقربةٍ من (المروة) وباب السلام الجديد.

واشتهر بمكة المكرمة بعض دلالي الكتب.. الذين ربما اشتروا (تركاتها) أو سمسروا عليها ، وكان من أشهرهم (العم

بعرورة) و (البارودي) ، ولكن (البارودي) كان أكثر التزامًا في السمسرة على الكتب وبيعها ، وقد تكوّنت لديه مع الأيام خبرةٌ فيها ، واعتمد عليه بعض هواتها ، وهواة جمع الصحف والمجلات، في العثور على ما ينقصهم من أعداد.. أو ما يتطلعون إليه من نوادر.. وقد اشتهر بحزمه وصرامة أسعاره.. وهو بائعٌ متجولٌ مع ذلك فقد يحمل على رأسه بضاعته ليعرضها على زبائنه.

— ٥ —

وتجارة الكتب في مكة المكرمة ، تعتمد في الدرجة الأولى على المصاحف ، خاصة في المناطق القريبة من المسجد الحرام ، وكانت من قبل تعتمد في الدرجة الثانية على الكتب التي تُدَرّس في حلقات الحرم ، وكانت هذه الحلقات كثيرة.

لقد كتبت هذه المعلومات من الذاكرة.. بعد هذا الفاصل الزمني الشاسع ، الذي يمتد طولا حوالي أربعين سنة.

- ٦ -

وهنـاك رجـلٌ أديبٌ كـان رائداً فـي استـيـراد الـصـحـف والمجلات قبل أن تدخل (مكتبة الثقافة) بفعاليتها الجبارة .. إنه الأستاذ السيد (هاشم علي نحاس)[١] الذي كان وكيلا لدار الهلال المصرية ، التي كانت داراً ضخمةً للنشر بالقاهرة تصدر عدداً من المجلات المتنوعة. تأتي مجلة (الهلال) الشهرية في مقدمتها.. ومن المجلات التي أصدرتها : المصور ، والكواكب وحواء ، وكل شيء ، والدنيا ، وهاتان ضمتا في مجلة واحدة هي (كل شيء والدنيا) ، ثم انضمت هذه إلى الكواكب فصدرت مجلة (الاثنين) ، ودار الهلال هي التي كانت تصدر ـ ولا تزال ـ روايات الهلال.. وغير ذلك مما لا يحضرني ذكره الآن.

---

(١) ذكّرني به الأستاذ الصديق عبدالرزاق بليلة ، أحد مؤسسي مكتبة الثقافة.

ولم يكن السيد هاشم يستورد المجلات للبيع ، فلم يكن تاجراً ، بل كان موظفًا بوزارة المالية.. حينما كان مقرها بمكة المكرمة في (أجياد) ، ولكنه كان الوكيل الذي يشترك في هذه المجلات وأمثالها بأسماء طالبي الاشتراك ، ليتلقى كل صاحب اشتراك مجلته على عنوانه.. وأحسب أن السيد النحاس ـ يرحمه الله ـ اتخذ بعد تقاعده دكانًا في (سوق الصغير) لبيع المجلات ، وربما بعض الكتب ، ثم نقله فيما بعد إلى جدة ، عندما انتقل إليها.

إن تاريخ الحركة الثقافية في مكة لا ينبغي أن ينسى ما اضطلع به هذا الرجل من جهد في سبيل إتاحة الفرصة للقراء للحصول على أشهر المجلات المصرية.

- ٧ -

وبعد.. فهذه صورة تقريبية.. لما كانت عليه المكتبات التجارية في مكة المكرمة.. وبقي أن أتحدث عن رحلتي معها ، أو رحلتي إليها.. وإن كان قد ورد شيء من ذلك خلال استعراضي السابق ، في إشارات عابرة اقتضاها السياق.. ولكنها كانت ومضات.. أحسبها في حاجة إلى شيء من التركيز.

أحسب أن مكتبة (عبدالعزيز مرزا) - يرحمه الله - كانت هي الطُعم الذي اصطادني صبيًا إلى ذخائر (باب السلام) ، وهو اصطياد تدريجي.. كان يكبر معي ، كلما قطعت من العمر شوطًا جديداً.. وما زلت حتى هذه اللحظة ، لا أستغني عن ذخائر (باب السلام) ولذلك حديث سيرد في موضعه.

كنت أتردد على (مكتبة المرزا) ، منذ التحقت صبيًا في السابعة.. أو بعدها بقليل ، بمدرسة الصفا التحضيرية ، وكانت في الصفا ، بالخاسكية في عمارات الشريف علي باشا ، في

مبنى يجاور (مدرسة الفلاح) ، التي كانت تقوم هي الأخرى في العمائر ذاتها.. وأحسب أنه ما من تلميذ مثلي في هذه المدرسة ، أو ربما في غيرها أيضًا إلا وقد تردد على مكتبة المرزا.

بدأت أشتري منه (فروخ) الورق المسطّر.. الذي كان يطلبه مدرس الخط.. بالذات.. ثم الدفاتر المدرسية ، والأقلام البوص أول الأمر ، ومعها الحبر الذي نَحُلُّه بأنفسنا ، ونضعه في (الدواة) مع (الزية) أي القطن الذي يمسك الحبر لئلا يندلق.. ثم استغنت المدارس عن الأقلام البوص ، التي كانت عبارة عن أعواد نحيلة من نبات خاص ، يبرى بريًا فنيًا ليصلح طرفه للكتابة.. ويعدّ الكاتب رأس القلم بقطةٍ معيّنةٍ تتناسب مع ما يريد من خط نحيل أو سميك ، أو رقعة أو نسخ..... الخ . وكان عبء بري الأقلام كثيراً ما يقع على مدرس الخط.. وقد يساعده بعض نجباء الطلبة.. ولم أكن منهم في المرحلة التحضيرية.

ثم اختفت هذه الأقلام ، لتحلّ محلها أقلام الريش.. وهي أقلام يسع الكاتب أن يضع في رأسها ريشة معدنية بحسب حاجته.. وكنا نسمّيها الريش الملا.. وهي تختلف درجاتها ، فإما

نمرة واحد ، أو نمرة اثنين ، أو ثلاثة.. فمنها النحيل جداً ، ومنها السميك جداً ، ومنها بين بين.. فمنها ما يصلح للخط الرقعة.. ومنها ما يصلح للخط النسخ.. وفي مرحلة تالية ، بدأت هذه الأقلام تختفي ليحل محلها أقلام الحبر.

كان (عبدالعزيز مرزا) لا يبيع إلا الأدوات الكتابية ، التي يحتاجها الطلبة.. وقد أخذ يوسع تجارته مع الأيام ، ويُحَسّنها ، ويطوّرها حتى أصبح في مقدمة تجار القرطاسية.. بل إن لم يكن هو الرائد الأول فيها ، فلا شك أنه من أوائل روادها ، وهو بلا شك أكثر الرواد ثباتًا ورسوخ قدم..

كنت أشتري منه حاجياتي المدرسية.. فأراه أيامها شابًا طوالا ، أسمر اللون ، معتدل الخلقة ، هندي الملامح ، جاداً في غير وحشةٍ.. ذكيًا.. دؤوبًا ، فتح لنفسه باب الاستيراد على مصراعيه.. وعمد إلى جوانب من النشاط الذكي ، فكان يطبع على دفاتره ، صورة الأمير فيصل ، أمير الشباب ، وهو الملك فيصل فيما بعد ـ رحمه الله ـ.. وقد يطبع بعض الأبيات الشعرية من نشيد أو شعر حماسي.. وبودي لو جمع أبناؤه ، وهم لا يزالون

يعملون في تجارته ، وقد طوّروها ووسّعوها ، بارك الله فيهم ولهم، أقول بودي أن لو جمعوا مطبوعاته التاريخية هذه ، ذات الدلالة الوطنية ، ليجعلوا منها متحفًا صغيراً فريداً في بابه.. ولعلهم يستطيعون أن يجمعوا نوادر تلك المطبوعات تخليداً لذكرى والدهم الرائد.

كان دكان (المرزا) مواجهًا لمن دلف من باب السلام من بوابته الكبرى التي على المسعى.. في صف حنفية باب السلام.. كان دكانًا متواضعًا قسّمه صاحبه قسمين الواجهة وفيها الرفوف ، وفاصل خشبي يحمل رفوفًا أيضًا ، ثم المخزن الداخلي.

عن طريق ترددي على مكتبة المرزا ، لشراء فرخ ورق ، أو ريشة.. أو دفتر.. تعرّفت على العم علي البوصي.. الذي أخذت أشتري منه ـ كما أسلفت ـ ملازم شعبية من قصص ألف ليلة وليلة مثل الشاطر حسن ، وعجيب وغريب ، وسهام الليل ، وتودد الجارية.. كانت سلخات مطبوعة في ورق رديء أصفر ، ولها غلاف أحمر رخيص.. ولكنه كان بالنسبة لي يمثل كتابًا عجيبًا ، فتح لي أبواب القراءة الحرة.. بعد كتابي الأول المفضل (القراءة

الرشيدة) الذي كان البوابة الحقيقيـة التي دلفت منها إلى بهجة المعرفة.

في (باب السلام) ، ترددت ، بعد أن أصبحت قادراً على شراء بعض الكتب ، ولو إلى حدٍ محدودٍ ـ ترددت على بعض المكتبات من أجل الشراء.

وقد أسلفت أنني اشتريت بعض الكتب التراثية من الشيخ (عبدالصمد فدا) ـ يرحمه الله ـ ، ومنه اشتريت (مغني اللبيب)، بعد أن انضممت إلى حلقة السيد (أمين كتبي) ـ يرحمه الله ـ ، لدراسة النحو به.. وكنت أفضل أن أتعامل معه لأن أسعاره محددة.. ولأنه كان يكرم وفادتي ، كلما ترددت عليه.

أما الشيخ (أحمد الباز) ـ يرحمه الله ـ ، فكان يملك قدرة فائقة على تسويق بضاعته من الكتب ، وقد اشتريت منه ـ كما ذكرت ـ عدداً من الكتب التراثية.. بل لعلي اشتريت منه أكثر من غيره من كتبية باب السلام . وقد اشتغل بعض أبنائه ببيع الكتب ، وما زلت أحتفظ بصداقة ابنه (عباس الباز).. كما لا زلت أحصل منه على ما أريد من نفائس التراث ، وأجد راحةً في

التعامل معه لما يتسم به من نزاهةٍ واستقامةٍ.

ومن (عبدالكريم الباز) اشتريت ـ كما أسلفت ـ معجم الأدباء وبعض الكتب الأخرى ، منها بعض الكتب الجديدة.

أما مكتبة الميرة ، فقد ابتعت منها آحاداً من كتب التراث لم أجدها عند الآخرين.

وعندما افتتحت مكتبة الثقافة ، اقتنيت منها أكثر الكتب العصرية التي ضممتها إلى مكتبتي.

ومن الصديق العرابي ، ابتعت بعض الكتب ، على قِلّتها، من تراثية وعصرية.

كما تعاملت مع (مكتبة الجيل) ، فيما لم يتوفر عند الأصدقاء في مكتبة الثقافة.

أما الشيخ (عبدالفتاح فدا) شيخ الكتبية بعد الشيخ (الباز) فأذكر أنني وقفت على مكتبته مرات محدودة جداً ، لشراء بعض الكتب ، أو للسؤال عن بعضها ، وقد وجدته بي حفيًا.

(قاسم ميمني) كنت أتردد عليه ، لقرب دكانه من مقر

عملي حينما كنت أعمل في مديرية المعارف ، حيث كان مقرها في الصفا ، وكان دكانه بها.. ولم يكن كتبيًا بالمعنى الدقيق ، ولكنه كان يبيع الصحف والمجلات ، ويشتري أحيانًا بعض المكتبات الخاصة.. وكانت معاملته - يرحمه الله - تتسم بالصرامة والجفاف ، والتغالي في الأسعار.. وأذكر أن لي معه قصةً طريفةً.. فقد اشترى مرة مكتبة أحد الأدباء حينما اضطرته الحاجة إلى بيعها.. وكان من بينها المجلد الأول من مجلة (الثقافة) التي كانت تصدرها (لجنة التأليف والترجمة والنشر) التي كان (أحمد أمين) وراء نشاطها .. وقد سرّني أن أجد هذا المجلد .. وقد طلب ثمنًا له عشرين ريالاً ، وهو ثمنٌ مرتفعٌ جداً أيامها ، فقد كان راتبي ، بل مجموع دخلي ، يساوي تقريبًا خمسة مجلداتٍ من الثقافة فقط لا غير.

حملت المجلد ممتلئًا فرحًا وبهجةً ، ولجأت إلى ناموسيتي ، ووضعت الفانوس نمرة ثلاثة.. عند رأسي.. وأخذت أتصفح المجلد.. فإذا هو - أولاً - قد نزعت منه اللوحات الفنية التي كانت المجلة تهديها لقرائها ، وهي لوحاتٌ شهيرةٌ ، لكبار الفنانين

الغربيين ولم يكن هذا ليهمني كثيراً.

وإذا هو ـ ثانيًا ـ قد نزع منه أيضًا بحثٌ مسلسلٌ كنت مهتمًا به حينما كنت أطلع على أعداد المجلة تباعًا حين صدورها.. فخاب أملي ، وأحسست بالمرارة ، وطويت ليلتي على ندمٍ ، فلما كان الصباح.. سعيت إلى الميمني ، ورجوته أن أسترجع الثمن ، فإن المجلد كان معيبًا ، لكنه رفض.. فحاولته.. فأبى.. وبعد لأيٍ شديدٍ قَبِلَ أن يسترجع المجلد ، على أن لا أسترجع ثمنه نقداً ، وإنما شيئًا من بضاعته.. فوقعت في حيرةٍ ، ماذا أختار من معروضاته.. وليس فيها إلا مجلات وصحف أكثرها قديمٌ.. ولم تعد لديه من مكتبة الأديب التي اشتراها شيءٌ مغرٍ.. واسترعى نظري وجود (بطانياتٍ) صوفيةٍ غليظة النسيج ، سيِّئة المنظر، كان يبيع الواحدة منها بأربعة عشر ريالا ، فقلت له : سآخذ واحدة من هذه.. وترجع إليَّ ستة ريالات.. قال : لا.. رأسًا برأس.. فخضعت إذ كان لا بد من الاستسلام ، لئلا نذهب معًا إلى (كركون الصفا) [١] وكان منا على مقربة.

---

(١) كان يطلق (الكركون) على قسم الشرطة .

عدت إلى داري متأبطًا البطانية الغليظة ، بدلا من مجلد الثقافة ، وتساءلت والدتي ـ يرحمها الله ـ باندهاش شديد عن (البطانية) ونحن على أبواب الصيف؟؟ فضلا عن أن مكة المكرمة يستمر فيها الصيف اثني عشر شهراً فقط لا غير.. ولا يعرف الناس أجهزة المكيّفات لسبب يسير أنهم لم يعرفوا الكهرباء بعد ، إلا كهرباء الحرم الشريف.. قلت لها: إننا ندخرها للطائف.. وكنا فعلا نصطاف في الطائف.. أنتقل إليه منتدبًا مع الجهة التي أعمل بها.. وهكذا وجدت مبرراً للبطانية السوداء ، وقد ظلّت الأسرة محتفظةً بها أعوامًا.. تذكاراً للحادث الطريف.

أما (أحمد حلواني) ، فكان يُعَدّ المورد الأول للأدباء الكبار ، وما مررت بمكتبته ـ سواء حينما كانت في باب السلام ، أو بعد أن انتقلت إلى القشاشية ـ إلا ووجدت لديه ما يغري ويلوي العنق من الكتب ، ولكني كنت أحسّ جفافًا في سعره ولهجته.. فأبتعد.. وكنت مرة في حاجة شديدة إلى كتاب (كشف الظنون).. ولم أجده إلا عنده.. وقد أسلفت الإشارة إلى ذلك .

و (عبدالرحمن العفاني) ، كنت أشتري منه حينما كان

يعمل في باب السلام ، وبعد أن استقل بدكانٍ مرتفع العتبة في (باب الزيادة) ، على يسار الداخل إلى المسجد الحرام.. وكان يستورد بعض كتب التراث ، كما كان ماهراً في محاولة كسبي زبونًا دائمًا لمكتبته.. وقد ابتعت منه فعلاً طائفةً من مقتنيات مكتبتي من الكتب التراثية..

* * *

وقد يبدو للقارىء أنني كنت أنفق كثيراً على شراء الكتب.. لكنني في الواقع أتحدث عن مسافةٍ من العمر ليست قصيرةً ، إذ تمتد حوالي ربع قرن.. أي منذ التحقت بالمدرسة الابتدائية إلى حين انتقال عملي إلى جدة سنة ١٣٧٥هـ.

حقًا لقد كنت مولعًا بشراء الكتب والصحف.. ولكنه الولع الذي لا ينسيني تبعاتي ربًا لأسرة ، كما كنت حريصًا دائمًا على أن أسدد ديوني.. وقليلا ما كنت أشتري كتبًا بالسلف.. ولعل مما جعلني مقدامًا في شراء الكتب ، أنني خلال هذه الفترة لم أكن قد تزوجت بعد.. وكان عدد أفراد أسرتي محدوداً ، وكذلك كانت مطالبها.. وهذا ما شجعني على تكوين نواة مكتبتي.. وهي

النواة التي ظللت بحمد الله محتفظًا بها إلا ما ذهب به الضياع في تعدد النقل من دار إلى دار ، أو من مدينة إلى مدينة.. وهذه قصة أخرى.

كانت أسرتي الصغيرة ، مكوّنةً من والدتي ، وبعض أخواتي.. فجهدت أن أوفق بين مطالبهم ومطالبي.

كانت والدتي تلومني أحيانًا ، لما ترى من اندفاعي في شراء الكتب والصحف .. فكنت دائمًا أسكتها بحجة قوية .. هي أنني لا أدخن .. مثل بعض لداتي.. وأن الكتب على أية حالٍ أفضل من الدخان الذي يذهب في الهواء ويعود على الصحة بالأضرار ، كان ذلك يقنعها ويرضيها.. ولكن يظل لديها تحفّظٌ على ازدحام المنزل بالكتب، وما تسببه الكتب من مضايقاتٍ منزليةٍ .. وهذه مشكلةٌ لدى كل أسرة تبتلى بمن يهوى الكتب .. وهي مشكلةٌ قديمةٌ .. وفي تاريخها الكثير من الطرف والنوادر..
والله المستعـــان.



الملحق الأول

تاريخ مكتبة الثقافة بمكة المكرمة

بقلم

الأستاذ صالح محمد جمال رحمه الله

تحقيقًا لرغبة الصديق الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي ، رفيق الدرب في الأدب والطبع والنشر والتوزيع ، في أن أكتب تاريخ مكتبة الثقافة بمكة وسيرتها .. يسعدني أن أضع ذلك تحت نظر الصديق العزيز والقرّاء جميعًا .

حقًا لقد كان إنشاء هذه المكتبة وليد الصدفة فقد كنت أجلس في نافذة سكني ، الذي كان يطل على المسعى ، في أوائل عام ١٣٦٤ هـ ، وكان يزورني الصديق الأستاذ محمد حسين أصفهاني ، ومر من الشارع الصديق الأستاذ عبدالرزاق بليلة فلمحني وأشرت إليه بالصعود ، فصعد إلينا ، ثم لحقه الصديق الأستاذ أحمد ملائكة بعد أن كان في طريقه إلى سكن آل ملائكة في الزقاق الذي طغى عليه اسم زقاق ملائكة بالمدعى وهو زقاق الطبري ، حيث يوجد به مدفن إمام من أئمة العِلْم من آل الطبري ولا يزال.

تحقيقًا لرغبة الصديق الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي ، رفيق الدرب في الأدب والطبع والنشر والتوزيع ، في أن أكتب تاريخ مكتبة الثقافة بمكة وسيرتها .. يسعدني أن أضع ذلك تحت نظر الصديق العزيز والقرّاء جميعًا .

حقًا لقد كان إنشاء هذه المكتبة وليد الصدفة فقد كنت أجلس في نافذة سكني ، الذي كان يطل على المسعى ، في أوائل عام ١٣٦٤ هـ ، وكان يزورني الصديق الأستاذ محمد حسين أصفهاني ، ومر من الشارع الصديق الأستاذ عبدالرزاق بليلة فلمحني وأشرت إليه بالصعود ، فصعد إلينا ، ثم لحقه الصديق الأستاذ أحمد ملائكة بعد أن كان في طريقه إلى سكن آل ملائكة في الزقاق الذي طغى عليه اسم زقاق ملائكة بالمدعى وهو زقاق الطبري ، حيث يوجد به مدفن إمام من أئمة العِلْم من آل الطبري ولا يزال.

قبل هذه الجلسة كان الصديق الأستاذ الأصفهاني قد أوكل إليَّ - وأنا موظفٌ بالمحكمة الشرعية الكبرى - أن أتولى توزيع مجلة المختار التي حصل على وكالتها بالمملكة ، وكانت تصدرها دار نشرٍ أمريكيةٍ في طبعةٍ ممتازةٍ ترجمةً عن مجلةٍ علميةٍ أمريكيةٍ اسمها (ريدرز داجست) كمختاراتٍ منها ، في طباعةٍ أنيقةٍ وإخراجٍ رائعٍ وموضوعاتٍ ثقافيةٍ ، لتباع بسعرٍ رمزيٍ هو ثمانية قروشٍ دارجةٍ ، وكان يرسلها إليَّ طروداً كصديقٍ ، وأنا أجمع صبيان الحارة يوم وصولها - وإخالها شهرية - لأحسبها عليهم بسبعة قروشٍ ، ويبيعونها بثمانيةٍ ، أي يحصلون على ربح قرشٍ عن كل عددٍ وهو ربحٌ مجزٍ ، بل مغرٍ حينذاك.

وكان الحديث يومها عن المجلة وتوسيع نطاق توزيعها ، ثم تطور إلى سؤالٍ : لماذا لا نقوم بإنشاء مكتبةٍ أدبيةٍ ثقافيةٍ لتحقيق طموحات الشباب بمكة المكرمة ، ولم يكن بمكة المكرمة يومئذٍ مكتبةٌ كهذه ، فقد كانت كل المكتبات تركز على الكتب الدينية والمراجع والمصاحف بمختلف أحجامها وأنواعها وطبعاتها ، التي لها سوقٌ رائجةٌ في موسم الحج ، باستثناء مكتبةٍ واحدةٍ في

باب السلام الكبير ، هي مكتبة أحمد حلواني ، تستورد أعداداً محدودةً من كتب الأدب الحديث من مؤلفات العقاد وطه حسين والرافعي والزيات والمازني كمشاهير للأدباء ، ودكانين بالقشاشية هي دكان الشيخ قاسم الميمني ، ودكان الشيخ مصطفى يغمور.. تستوردان نسخًا محدودةً أيضًا من مجلة الرسالة ومجلة الثقافة ومجلة الهلال ، تتسابق إليها الأيدي بمجرد وصولها أحيانًا أجدها ، وأحيانًا أخرى لا أجدها .

دار الحديث سجالاً واستعد الصديق أحمد ملائكة بحكم تردده تلك الأيام بين مكة والقاهرة أن يورد لنا الصحف والمجلات ويحصل لنا على وكالاتٍ لتوزيعها بالمملكة ، ليكون نشاطنا الثقافي أوسع ، كما يفعل ذلك بالنسبة لدور النشر المصرية ويورد لنا مختاراتٍ من الكتب .

واستعد أخونا الأستاذ الأصفهاني أن يتولى القيام بتخليص ما يردنا من الجمارك بجدة ، ويرسله إلينا ، ويتولى فرع المكتبة في جدة ، وقال الصديق الأستاذ عبدالرزاق بليلة بأنه مستعد لإدارة المكتبة بمكة المكزمة ، وتطوعت أنا بإدارة الشركة

وحساباتها ومراسلاتها ومساعدة الصديق عبدالرزاق بليلة في المكتبة .

وبعد أن وصلنا إلى هذه النقطة ، راحت السكرة وجاءت الفكرة - كما يقول المثل - أين نجد الموقع الذي نقيم فيه المكتبة ، وكان مقر المكتبات باب السلام كبيره وصغيره ، وليس فيه دكان شاغر ، وخروجنا عن هذه المنطقة لا يضمن لنا النجاح ، وخصوصًا أننا عزمنا ألا نعتمد على أرباح الصحف والمجلات والكتب الأدبية ، فقرّاء هذه الأصناف من الغلبانين أمثالنا ، الذين يوفرون أثمان ذلك من مصاريفهم الشخصية ، وعلى حساب رفاهيتهم ، ولكن نعتمد على أرباح الكتب الدينية والمصاحف التي تروج سوقها في موسم الحج. ولو ابتعدنا عن هذا السوق - سوق باب السلام - فلن نفلح ، وسيكون الإفلاس نصيبنا .

وأعملنا فكرنا ، ونبشنا في ذاكرتنا حتى تذكّرنا الصديق عبدالحليم الصحاف ، وهو صاحب مكتبة بباب السلام الصغير - أبًا عن جد كما يقولون - ولكنه قفل المكتبة وتوظف في مديرية الأوقاف بمكة المكرمة - قبل أن تصبح وزارة - ولكنه متمسّكٌ

بالدكان يستأجره ويجلس فيه كل جمعةٍ لمجرد الصلاة ، وكنت أنا أجلس معه ونصلي الجمعة أمام باب الدكان.

تمسّك بالدكان خوفًا من غدرات الوظيفة ، فقد يضطر إلى الرجوع إلى صنعة أبيه - كما يقولون - وفوّضني الإخوان بالتفاوض معه ، ولقيته يوم الجمعة كالمعتاد ، وبحثت الأمر معه، فكان جوابه أنه لا يستطيع التخلّي عن الدكان إلا أن يكون شريكًا معنا في المكتبة الجديدة ، فوافق الزملاء ، وعقدنا الشركة، واستلمنا الدكان وفتحناها ، وتبرّع لنا الزميل أحمد ملائكة بمكتبته الخاصة لنزيّن بها رفوف المكتبة لئلا تظهر خاوية على عروشها.. وبدأنا بالصحف والمجلات وجعلنا شعارنا المطبوع على أوراقنا ـ اربح قليلاً تكسب كثيراً ـ وبدأنا العمل باسم الله وعلى بركة الله ، وبدأت طرود الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية فقط ، ولم نتورط في أي صحيفة يومية لأن البريد كان يصل من مصر في الشهر مرتين فقط وعلى البواخر ، أي كل خمسة عشر يومًا مرة ، فكانت المجلات الأسبوعية تأتي كل عددين معًا ، والشهرية عدداً واحداً ، وكنا نشترط على المشتري

أن يأخذ العددين معًا ، فلا نبيع عدداً واحداً ، لأننا لو فعلنا وبقي عندنا عددٌ لم نجد له قارئًا أضعنا المكسب على رأس المال.

وأقبل القرآء من كل صوب على المكتبة ، وشجعها الأدباء الكبار قبل الصغار ، وتقاطر الطلاب ، وصرنا نلاحق الزيادات لتحقيق رغبة القرآء ، ثم بدأ وصول الكتب الأدبية الحديثة من مؤلفات مشاهير الأدباء في مصر والعالم العربي ، إذ كانت مصر هي المصدر الوحيد للمؤلفات العربية ، حتى لحقت بها لبنان بعد عدة سنوات كثيرة ، فتعاملنا معها.

بعد ذلك استقال الزميلان محمد حسين أصفهاني وأحمد ملائكة من الشركة لتفرغهما لأعمالهما بعد أن انتقل الأخ أحمد ملائكة إلى مصر نهائيًا ، وأسس مطبعة هناك أخذت كل وقته وتوظف الزميل عبدالرزاق بليلة بالأمن العام ، وتفرّغت أنا بالاستقالة من الأمن العام - بعد أن انتقلت إليه من المحاكم الشرعية - لأعمال المكتبة مستعينًا بموظف.

في هذه الأثناء فكّرت في توسيع نطاق نشاطات المكتبة بالدخول في مجال النشر ، وأنا أعلم أن كثيراً من الأدباء

السعوديين لديهم مؤلفاتٌ لا يستطيعون طبعها ونشرها على حسابهم خوفًا من المغامرة ، فبدأت المكتبة بنشر ديوان شعرٍ للأستاذ طاهر زمخشري تحت عنوان (المهرجان) ثم ثَنَّت بكتاب (تاريخ مكة) للأستاذ أحمد السباعي ، ونجح الكتاب الثاني وأخفق الأول ، لأنني استطعت أن أنظم حملة إعلاناتٍ عن تاريخ مكة ، استغللت فيها أسماء بعض الأسر المكّية التي ورد ذكرها في الكتاب وبعض الأحداث الغريبة من تاريخ مكة ، التي كان يتطلع الناس إلى معرفتها ، فأقبل القرّاء على الكتاب ونفد بسرعة ، وجرى طبعه بعد ذلك من المؤلف عدة طبعات.

ولا تزال مكتبة الثقافة مستمرة في مسيرتها وشعارها أيضًا وهي أول مكتبةٍ - أو على الأصح أول محلٍ - في مكة المكرمة يلتزم بالسعر المحدد ، فلا مجال عندها للمساومة فكان ذلك مثار غضب عند البعض في أول النشأة ، حيث تعوّدوا على المساومة ولكنهم بعد ذلك رضوا.

وخلال مسيرة المكتبة منذ نشأتها افتتحت فرعًا لها بالطائف بمشاركة الأخوين عبدالرزاق كمال ومحمد حسن كمال ،

في باب الربيع ، وما زالت قائمةً.. وفرعًا آخر بمدينة جدة في باب مكة ، عمارة الموصلي ، ولكنها أخفقت وقفلت أبوابها بعد سنتين، وفرعًا ثالثًا في أجياد هو الآخر أخفق وجاءت إزالة موقع المكتبة في أجياد فرصةً لإقفالها.

والآن لها فرع آخر بالحجون يكاد يكون هو الأصل بعد أن طوردت مكتبة الثقافة الأم من باب السلام الصغير إلى القشاشية، ثم إلى سوق الليل ، حتى انكمشت في كشكٍ ، وهي الآن على وشك الانتقال منه بسبب مشروعات توسعة المسجد الحرام وما حوله للتوسعة على المصلين من ضيوف الرحمن في سلسلة المشروعات العملاقة..

والله الموفّق والمستعان..

صالح محمد جمال

الملحق الثاني

رسالة الأستاذ عبد الغني فدا

بتقديم المؤلف



تقديم

حينما نشرت مقالاتي عن رحلتي مع المكتبات وتعرّضت استطراداً إلى الحديث عن المكتبات التجارية في مكة المكرمة وذلك في جريدة الجزيرة.. كنت أتوقع أن تكون هناك تعليقاتٌ من القرّاء ، بل لقد كنت أرجو أن يمدني القرّاء بتعليقاتهم ، فقد كنت أكتب ما أكتب من الذاكرة ، ولا أرجع إلى مصدرٍ موثوقٍ أو كتابٍ مطبوعٍ أو مخطوطٍ ، وأنا أعرف تمامًا أن ذاكرتي غربالية التكوين ، ولكني كنت أرجو أن أتعاون مع قرّائي على سد الخلل لنصل إلى بعض الحقائق التاريخية ، أقول بعضها لا كلها..

ولقد تفضّل فعلاً بعض الإخوة المهتمين بالأمر فكتبوا ونشروا تعليقاتهم فأفدت منها ، جزاهم الله جميعًا خيراً ، ومنهم من أمدني بالمعلومات في رسائل خاصةٍ أو في أحاديث خاصةٍ ، وقد أشرت إلى كل ذلك في مستدركاتي التي نشرت..

وكان يهمني حقًا أن يشترك في هذه التسجيلات التاريخية

بعض أرباب الصنعة نفسها.. أعني من البيوتات الكتبية العريقة الذين مارسوا العمل بها سنواتٍ طويلةً وأصبح لهم فيها تاريخٌ وقدمٌ راسخٌ.

ذلك أن معالم أسواق الكتاب الرئيسية ، بل السوق الرئيسي للكتاب في باب السلام الكبير وباب السلام الصغير، أصبحت قصة تروى وليس واقعًا مشاهداً ، ولا بد من استحضار صورتها من الذاكرة إذا لم يتيسر استحضار صورةٍ تخطيطيةٍ واقعيةٍ موثّقةٍ أو صورةٍ فوتوغرافيةٍ ولأجل ذلك فإن من الأهمية بمكانٍ كبيرٍ أن يتعاون أكثر من ذاكرةٍ للوصول إلى صورةٍ تقريبيةٍ لما كانت عليه المكتبات التجارية في مكة المكرمة ومكتبات بابي السلام بصفة خاصة.

والذين عاشوا في باب السلام نفسه ، ومارسوا مهنة تسويق الكتاب ، وهي مهنةٌ شريفةٌ عظيمة الأثر والفائدة ، هم أحق الناس بالحديث عن ذلك الباب الفريد ، لذلك كان فرحي كبيراً حينما تفضّل بزيارتي الأستاذ عبدالغني فدا ، وهو ابن بار للأستاذ عبدالله فدا ، أحد أصحاب المكتبات في باب السلام

وأحد الأدباء ، وكانت مكتبته ندوةً تضم نفراً من كبار أدبائنا..

لقد تفضّل الأستاذ عبدالغني بزيارتي ، وهو كما هو واضح من اسمه ينتمي إلى أسرةٍ عريقةٍ في تسويق الكتب ، عرفت منهم عدداً من الأفاضل ، ذكرت أسماء من أسعفتني الذاكرة بأسمائهم - زارني وحدّثني طويلا عمّا تعيه ذاكرته عن باب السلام وأصحابه ومَن تعاقب على دكاكينه.

وجدير بالذكر أن الأستاذ عبدالغني لا يزال شابًا ، ولكنه يستطيع أن يتحدث عن أسواق الكتاب قبل توسعة الحرم الشريف حديثًا موثوقًا به ، كيف لا وكبار أسرته كانوا هم سادة السوق في باب السلام ، بل كانوا بالدرجة الأولى أكبر موردي الكتاب ، ولا يزال منهم نفرٌ يعملون في الحقل ذاته.. وقد عاش شطراً من صباه في مناخه ، ولا تزال له به وشائج.

ولم يكتف الأستاذ عبدالغني بما تفضّل به عليَّ من حديثٍ شفهيٍ شهيٍ ، فأضاف حديثًا مكتوبًا سجّل فيه تعليقاته على شكل رسالة.

وها هي ذي رسالة الصديق الأستاذ عبدالغني فدا:

وبه نستعين

رسالة إلى معالي الأخ الكريم الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي حفظه الله ورعاه..

تحية إعزازٍ وتقديرٍ مني إليك مقرونة بالحب والود وكبير الإخاء ، وبعد..

أولا ـ تهنئتي لشخصك الكريم بالجائزة [1] ، والواقع تهنئتي للجائزة التي تقلّدتك.

ثانيًا ـ أشكرك وأشكر تلك الفرصة الطيبة التي دعتك إلى تذكّر رحلتك مع المكتبات بمكة المكرمة ، وما كتبته عن هذه المكتبات في عدد الجزيرة الصادر برقم ٦١٩٢ وتاريخ ١٣/صفر/١٤١٠ هـ ، تلك الفرصة التي تمثّلت في التحقيق الصحفي الجيد الذي نشرته جريدة " الحياة " في عددها الصادر

(١) يشير إلى وسام مجلس التعاون الخليجي .

في ٢٨ الحجة ١٤٠٩ هـ ، بعنوان " مكتبة المثنّى في بغداد سجلٌ أمينٌ لتاريخ الثقافة العربية " والذي أثار في ذاكرتك ذكرياتٍ كثيرةً عن رحلتك مع المكتبات ، التي امتدت طولاً على مدى أربعين سنة ، تذكّرت فيها المكتبات بمكة ، وعلاقتك بها ، الشهيرة منها وغير الشهيرة ، والتي كانت أغلبها إن لم تكن جميعها مجتمعةً بباب السلام بمكة المكرمة ، ثم حديثك عن أصحاب هذه المكتبات آل فدا ، آل الباز ، والسادة المساهمين أو المتشاركين بمكتبة الثقافة ومكتبة الجيل ، والشيخ أحمد السناري، والشيخ مصطفى ميرو ، وعلي البوصي ، والدلال البارودي ، والشيخ عبدالعزيز مرزا ، وعن بعض الكتب التي كانت تباع بها، ودور كل واحد منهم بل وطريقته في البيع والشراء ، إضافة إلى جوانب من شخصيته . تلا ذلك ما سطّره قلمك في عدد الجزيرة رقم ٦٢٢٧ الصادر بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٤١٠ هـ ، والذي احتوى على تصوّرك لمواقع وأصحاب هذه المكتبات وأماكنها بباب السلام الكبير والصغير ، وكذا أصحاب المكتبات الموجودة خارج باب السلام كالسيد هاشم النحاس ، والشيخ مصطفى يغمور ،

وقاسم ميمني ، والفخراني ، وأحمد سيام.

ثم ما كتبت من تعليقاتٍ أو تعقيباتٍ بعد التقائك بالصديق العزيز على أصدقائه جميعًا الأستاذ عبدالرزاق بليلة ، صاحب القلم الرشيق وتعقيباته العديدة ، والذي يذكره جميع أصدقائه بالخير ، والذي يتمنى الكثير منهم رؤيته ، ذي الباع الطويل في الكتابة منذ بداية صدور جريدة البلاد ، يوم أن كانت تصدر بمكة بمقرها بالشامية وبجانب المدرسة الرحمانية ، وتحريره لركن الشباب بها ، والهوامش العديدة التي كتبت استكمالاً للمكتبات وأصحابها ، وما جاء بها من تحليلاتٍ لمواقف رأيتها ، وهوامش ذكرتها في عدد الجزيرة رقم ٦٢٦٢ الصادر يوم الاثنين ٢٢ ربيع الثاني ١٤١٠ هـ - وما تبع ذلك من تعقيبات أيضًا وتوضيحات لمكتبة الثقافة ومؤسسيها الذين كان من ضمنهم الأستاذ محمد حسين أصفهاني.

وكذلك ما كتبه الأستاذ صالح جمال تعقيبًا ، في جريدة الندوة ، في عددها رقم ٩٣٧٧ الصادر بتاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٤١ هـ - ورغبته بل وتجاوبه الكريم لطلبك في الكتابة عن

مكتبة الثقافة ، والتي نحن في انتظارها مكتملةً لنستكمل الكتابة الموثّقة عن المكتبات.

ثم حثّك لأصحاب مكتبة الجيل الجديد في الكتابة عنها ، وهم الزملاء الفريق يحيى المعلمي والأستاذ حسن جوهرجي والأخ عبدالقادر الفاسي.

ومن المنطلق الذي حددته في كتاباتك هذه عن رحلتك مع المكتبات والذي تمنّيت أن تقرأ شيئًا من التعقيبات أو التعليقات عن حديثك هذا يثريه ويقومه ويوسع دائرته ، والذي أثرت به شوق الكثيرين إلى الكتابة عن باب السلام ، والمكتبات به ، وأصحاب هذه المكتبات ، والكتب التي كانت تباع بها ، والندوات التي كانت تعقد بها من قِبَل أصدقاء - وأدباء وشعراء وعلماء - لأصحاب هذه المكتبات.

أقول : ومن منطلق أن هذه التجارة تجارةٌ مميّزةٌ - كما قلت أنت - تتصل بالعلم والأدب والحركة الفكرية والثقافية التي شاركتْ وساهمتْ في إنمائها هذه الأسر وهؤلاء الرجال ، الذين كانوا ولا زال بعضهم يمارس هذه التجارة ويعشقها ، هذه التجارة

التي تحتاج لمن يعشقها أولاً ويمارسها ثانيًا ، إلى مال قارون ، وصبر سيدنا أيوب ، وعمر سيدنا نوح ، على كل حال أنا واحد من القلّة الذين اهتموا بما كتبت ، والذين اهتموا أيضًا كما تفضّلت بعرض هذه المعلومات والتعليقات أو التعقيبات على ذاكرة التاريخ ، أمل أن تكون فيها إضافةٌ جديدةٌ ذات أهميةٍ للقارىء الذي يهمه متابعة مثل هذا الحديث ، وأنا واحدٌ أيضًا ممن نازعه الشوق للكتابة عن المراحل التاريخية "الموثّقة بقدر الإمكان" لهذه المكتبات ، وأصحاب المكتبات ، والكتب العلمية والأدبية ، والمطابع ، وعلى رأس هذا كله المراحل التي مرّت بها طباعة القرآن الكريم ، على اختلاق أنواعها ، وعلى اختلاف الجهات التي كانت تقوم بطبعه ، والمراحل التي مرّ بها أصحاب هذه المكتبات جيلاً بعد جيل ، وأصدقاؤهم أيضًا ، والكتب التي كانت تباع في تلك الفترة. الكتابة في إطارٍ من أدب العلم وأدب الحوار الذي يفرضه عظيم خلقك وجميل صفاتك يا أيها العزيز على جميع أصدقائك ومَنْ يتعامل معك ، حتى الذين لم يكونوا على شيءٍ من هذا الجانب لمثل أي حوارٍ آخر معك ، داخل

أي إطارٍ لأي موضوعٍ أدبيٍّ أو ثقافيٍّ أو اجتماعيٍّ ، أجدهم ملزمين بل ومرغمين للتعامل معك بالأسلوب الذي ترتضيه ، بل والذي يفرضه - كما قلت - عظيم خلقك وجميل صفاتك ، فهنيئًا لك.

والآن أبدأ حديثي إليك ببعض التعليقات أو التعقيبات والإضافات ، فأقول :

أولاً : لقد ذكرتم فيما كتبتم أن الشيخ عبدالكريم الباز كان شيخًا للكتبية ، والواقع أنه لم يكن شيخًا للكتبية ، وقد انتقلت المشيخة هذه من الشيخ أحمد المنصوري الباز إلى الشيخ عبدالفتاح فدا ، بعد أن استدعاه الشيخ عباس قطان وأسند إليه المشيخة ، وذلك بعد وفاة الشيخ أحمد المنصوري الباز.

ثانيًا : ذكرتم فيما كتبتم أن الدلال كان البارودي وأسعد بعرورة ، وأريد أن أضيف إليهم أسماء أخرى كانت تقوم بهذه المهمة وهم : محمد شالواله ، ومحمد قلعي ، وعبدالفتاح دخاخني.

ثالثًا : ذكرتم أيضًا أن الحاج عند انتهائه من الحج يوثّق

حجته بالكتابة على صورةٍ لمكة المكرمة ، لينال بها لقبًا شرفيًا وهو لقب حاج. وأريد أن أضيف أن حجة البدل أيضًا كانت توثّق بمثل هذه الأورق والصور لمكة ، وكانت تعطى من قِبَل بعض الحجاج لعدد كبير من أهالي مكة الذين يرغبون في القيام بحجة البدل هذه ، وهي تختلف في قيمتها المادية من شخص لآخر حسب امكاناته المادية.

رابعًا : ذكرتم أن بعض الكتب كانت تباع بالميزان وبالأقة.. أنا لا أذكر هذا؟ ولكن أريد أن أضيف أن ما كان يباع بالأقة ونصف الأقة وربع الأقة هي دفاتر حسابيةٌ مكتوبٌ عليها "حساباتٌ يوميةٌ" ، وداخلها صفحةٌ مكتوب عليها : " منه " والصفحة المقابلة : " له " ، وكان يستعملها التجار في قيد حساباتهم بها. وكان الشيخ عبدالفتاح فدا يستوردها من مصر ، من شركة إنجليزية تُعِدُّها وتطبعها ، اسمها شركة ديكنسون ، تعمل بمصر ومتخصصة في عمل هذه الدفاتر الحسابية ، ثم أقفلت الشركة أعمالها وتجارتها هذه بمصر ، وتخصص بعدها في إنتاج هذا النوع من الدفاتر الحسابية شخص اسمه عارف الصوص ،

ومقرّه بالسيدة زينب بمصر ، ثم قامت بعده مطابع خلف عمر خلف بعملها وبيعها ، وقد شارك الشيخ عبدالفتاح فدا في بيعها أخيراً الشيخ عبدالعزيز مرزا ـ رحمهما الله ـ ولا زال الشيخ عبدالحفيظ فدا ابن المرحوم الشيخ عبدالفتاح فدا يحتفظ بشيءٍ من هذه الدفاتر ، وأنا كذلك أحتفظ بواحد منها. وكانت أيضًا بعض الصحف تباع بالأقة لأصحاب الدكاكين لعمل قراطيس منها لوضع الشاهي والسكر بها .

خامسًا : أما ما ذكرتم عن الأحجار الكبيرة والحجر المستطيل ، الذي يعترض الطريق مرتفعًا بحوالي أربعين سنتيمتراً (والمكّيّون يظنّونه بقايا " هُبَل ") كبير أصنام قريش ، وأنه وضع حيث هو ليداس بالنعال ، لقد وجدت في (تاريخ عمارة المسجد الحرام) لمؤلفه الشيخ حسين عبدالله باسلامة ، بالصفحة (١١٣) أساسًا لهذه الشائعة. قال ابن فهد القرشي : إن باب السلام هذا يُعرف قديمًا بباب بني شيبة ، (وكان يقال له باب بني عبد شمس، ويعرف بباب بني شيبة الكبير ، وهو ثلاث طاقات وفيه اسطوانتان ، وبين يديه البلاط مفروش من حجارة وفي عتبة الباب

حجارة طويلة ، مفروش بها العتبة ، وهي حجارة كانت بقية مما قلع القسري - وهو خالد بن عبدالله القسري أمير مكة من قبل عبدالملك بن مروان - لبركته التي يُقال لها بركة البردية ، بفم الثقبة وأصل ثبير - وهو أعلى جبال مكة ، وموضعه بأعلى مكة ، على يسار الصاعد من الأبطح إلى " مِنَى " - كانت الحجارة مطرحة حول البركة ، حتي نقلت حين بنى المهدي المسجد فوضعت هناك . ومَنْ قال إن هذه الأحجار الطوال كانت أوثانًا تعبد في الجاهلية.. فهذا لا عِلْم له) . .

ولا تزال هذه الإشاعة عن تلك الأحجار من كونها أصنامًا باقية إلى العصر الحاضر - ما قبل الهدم - فيقال عن الحجر الأوسط القائم على جنبه بين الحجرين المفروشين ، أحدهما من جهة مدخل باب السلام ، والثاني من جهة خارجه إنه " هُبَل " الذي كان منصوبًا على الكعبة في زمن الجاهلية. والظاهر أن هذه الرواية نقلها ابن فهد عن الأرزقي ، وكلاهما قد أبان في تاريخه عن حقيقة هذه الحجارة ، ولم أر أحداً من المؤرخين عارضهما في ذلك لا صراحةً ولا تلميحًا بأن الحجارة المذكورة كانت من ضمن

الأصنام التي كانت تُعبد في الزمن الجاهلي.

قد لا يعرف الكثير أن تحت دكة دكان الشيخ محمد لبني بروز مرتفعٌ عن مستوى الصنم يشكّل رأسًا له ، ولا بد لمن أراد أن يراه في تلك الفترة أن يرفع طرف " الحنبل " المتدلي من فوق الدكة حتى يستطيع أن يراه ، وقد صادق على ذلك الدكتور جعفر محمد لبني ، الأستاذ بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة في حديث معه ذاكرته فيه عن ذلك.

سادسًا : أعود إلى مواقع الكتبية بباب السلام "دكاكينهم" وأبعث لك " بكروكي " قام كلٌّ من الشيخ عبدالحفيظ فدا والشيخ عبدالشكور فدا وأنا بإعداده ، ووضع بياناتٌ بأسماء الكتبية ومواقعهم كشهود عيان ، وذلك على فتراتٍ من الزمن كنّا متواجدين فيها جميعًا ، ثم ذهب البعض للدراسة بمصر ، والآخر للإقامة بمصر فترةً زمنيةً طويلةً ، ثم جرى تنسيق وترتيب هذه البيانات بعد عرضها على الذاكرة ، ليدل على مواقعهم ، وليس هذا فحسب ، ولكن ذكر أسماء بعض الذين تعاقبوا على دكان واحدٍ منهم ، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر :

ـ الدكان الذي يقع بين دكان نواب علي ودكان الوالد عبدالله فدا ، كان أول مَنْ شغله آل الخطيب : الشيخ عبدالكريم الخطيب ومعه أبناؤه عبدالله الخطيب ولطفي الخطيب ، ثم جاء من بعدهم عطرجي اسمه علي حبحب ، ثم جاء من بعده الشيخ محمد دهان ، وكان يبيع المصاحف وبعض الكتب المدرسية ، ويقوم أيضًا بعمل اللوحات الإعلانية للمحلات والكتابة عليها ، ثم كتابة الآيات القرآنية على هذه اللوحات ، ثم جاء من بعده الشيخ عبدالحفيظ فدا ، والشيخ عبدالشكورفدا حتى نهاية عام ١٣٧٤هـ وبداية عام ١٣٧٥ هـ حيث بدأ مشروع الهدم والتوسعة للحرم المكي.

ـ وكذا الدكان الذي يشغله الشيخ أحمد حلواني كان يشغله من قبل الشيخ ماجد كردي وابنه الشيخ كامل كردي ، وكان الشيخ طاهر كردي يدير المطبعة الماجدية.

ـ ثم الدكان الذي يشغله الشيخ أحمد ميرو والد الشيخ مصطفى ميرو ، كان يشغله من قبل الشيخ أمان والد الشيخ يحيى أمان العالِم الحنفي الكبير ، والمُدرّس بمدرسة الفلاح ،

ومؤلف متن الاسقاطي في الفقه الحنفي ، ثم جاء بعد الشيخ أمان ـ الشيخ أحمد ميرو ثم ابنه عبدالحي ميرو حتى مشروع الهدم والتوسعة.

الحديث طويل ـ ولا أريد أن أطيل.. هناك الكثير.. فهناك مراحل طباعة المصحف الشريف والأدوار التي مرّ بها ، هناك المطابع الكثيرة التي بدأت بدايةً متواضعةً ، وكان أولها على سبيل المثال :

١ - المطبعة الماجدية.
٢ - المطبعة السلفية.
٣ - مطبعة أم القرى - حكومية.
٤ - مطبعة عبدالرحيم ملا.
٥ - مطبعة مكة.
٦ - مطبعة أحمد ومحمد كعكي.
٧ - مطبعة مصحف مكة.

هناك الأسَر العديدة التي مارست هذه المهنة على مدى

سبعين عامًا ، وما يتعلّق ويتبع هذه المهنة من تجليدٍ ، وبيعٍ للأدوات الكتابية، وهذه الأُسَر هي :

آل الكتبي ، آل فدا ، آل الباز ، آل الكردي ، آل الخطيب، آل ميرو ، آل اللبني ، آل الميمني ، آل النهاري ، آل البوصي ، آل المرزا ، ثم الشيخ أحمد السناري ، والشيخ أحمد الحلواني ، والشيخ حسن سندي ، ونصيف الدين وابنه عمر ، وأحمد علي ، وآل حبحب الذين كانوا يمارسون بيع العطور ، ثم تبعهم مكتبة الثقافة ، ومكتبة المعارف ، ومكتبة الاقتصاد ، ومكتبة الجيل.

هناك الكتب التي قامت بطبعها هذه الأُسَر ، وكيف بدأت هذه التجارة ، تجارة الكتب مع أصحاب المكتبات والمطابع بالخارج كمصر واسطنبول ، وعلي يد مَنْ..

هناك مراكز التجمع التي يجتمع فيها الكثير من المثقفين والمفكّرين والأدباء والعلماء والشعراء والقرّاء من قارئي القرآن الكريم ، مع أصحاب المكتبات ، والمناقشات التي تتحول إلى بحث لقضايا الفكر والأدب وأحداث الساعة.

هناك الندوات العلمية التي كانت تُعقد بدار السيد علوي

مالكي ، وبدار الشيخ محمد البليهد ، وبدار الشيخ محمد بن مانع ، هذه الدور المطلة على باب السلام .

هناك الشخصيات الإسلامية الكبيرة التي كانت تتواجد بباب السلام أمثال الشيخ طنطاوي جوهري صاحب تفسير الجواهر، والإمام حسن البنا، والشيخ محمد الشاذلي النيفر، وغيرهم كثير.

على كل حال نحن بصدد إعداد كتيّبٍ عن باب السلام ، وضعنا له اسمًا بصفة مبدئية وهو : باب السلام مكتبات وكتبية وكتب عبر التاريخ والرجال ، ونرجو من الله العون والتوفيق والسداد ومن الإخوة الكرام الذين يهمهم هذا الأمر الإمداد بأية معلوماتٍ ، ولك الفضل والشكر أولاً وأخيراً ..

عبد الغني فدا

جدة ٢٤/١٠/١٤١٠ هـ = ١٩/٥/١٩٩٠ م



مكتبة عبد الجباري
البخاري القطارات
المجلد علي الروسي
بسلم بايطين
عبد العزيز ميرزا أدوات مكتبية
حلوية باب السلام
بكري حجب (عطارجي)
محمد نعيم (مكتبة وكحل)
مكتبة مصطفى نورة
حسن حجب (عطارجي)
مكتبة أحمد سطوان وخلفها مكتبة ماجلكرمي
مكتبة أحمد الباز شيخ الكتبية
مكتبة مطابع الصحوري
أدوات كتابية عبد الغفار ميرزا
زقاق الرمان
مكتبة بسلم بايطين
مكتبة عبد الرحمن
مكتبة جعفر ليلي
مكتبة محمد ليلي
مكتبة عمر عبد الجبار
مكتبة حسن الرزي
سكن الشيخ محمد بن بليهد
سكن الشيخ محمد بن مانع

أدوات كتابية بسلم بايطين
دكان حسن سمكري
مجلد وبائع كحل أحمد يوسي
مكتبة خليل شاولاه
مكتبة محمد ميرزا
مكتبة أحسان
مكتبة عبد اللطيف قا
كتب وصور أحمد علي
مكتبة أحمد ستاري
مكتبة عبد الحميد الكتبي
مكتبة عبد الكريم قا
مكتبة السيد علي الباري
مكتبة حسن سقي





هـذه الرحلة

ماذا يهم القرّاء من ذكريات كاتب ما، عن المكتبات التجارية التي كان يتردد عليها، ويتعامل معها؟ وأية فائدة تعود عليهم من ذلك؟.

حاولت أن أسوِّغ الأمر لنفسي.. ثم رأيت أن أضع (المسوغ) أمام قرّائي..

الإنسان هو المعرفة.. فإذا افتقدها، افتقد جوهر إنسانيته..

وإن طريق الإنسان إلى المعرفة، كانت تجاربه وذاكرته.. ولكن ذاكرته وحدها لم تكن كافية.. كان عليه أن يبحث عن وسيلة يخلّد فيها لأجياله المقبلة، خلاصة تجاربه.. وأثمرت محاولاته المتعددة، اختراعه الكتابة.. إنها أعظم مخترعاته.. فلولاها لضاعت كل مخترعاته الأخرى..

من أجل ذلك كان (الكتاب).. ومن أجل ذلك كا...

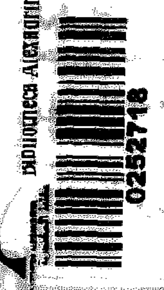
هو المعرفة.. إذن.. الإنسان هو المعرفة..

الكتاب.. وما دام للكتاب كل هذه الأهمية.. فإن

وحوله فروعاً من الأهمية قد تكبر، وقد تتضاءل.. ول...

مختلف درجاتها ترفد تاريخه..

هذا هو المسوغ.. فهل كان كافياً؟ الكلمة للقار...



دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع